

AL-MUNQIDH MIN  
AL-DALAL

# المنقذ من الضلال

والموصل إلى ذي العزة والمجد

تأليف

حجة الاسلام أبي حامد الغزالي

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

الدكتور جميل صليبا    الدكتور كامل عياد

« الطبعة السابعة »

دارالاندلس

للطباعة والنشر - بيروت

PJ 7802  
G42 M9  
1967

## الفزالي

حياته - فلسفته - المنقذ من الضلال

توليفة عامة

ظل الكثيرون من المستشرقين مدة طويلة من الزمان ينكرون على الفلسفة الإسلامية استقلالها في البحث ، وانتهاجها طريقة خاصة في معالجة المسائل الفلسفية ، حتى قال «رينان» : « ان الفلسفة الإسلامية ليست سوى فلسفة اليونان القديمة مكتوبة بحروف عربية »<sup>(١)</sup>.

ولكن هذا الحكم قد تغير في الأيام الأخيرة ، واخذ المستشرقون الباحثون في حضارة الاسلام يعترفون للفلاسفة المسلمين بأن لهم طابعاً خاصاً مستقلاً ، وانهم استطاعوا التقدم في الفكر البشري خطوات الى الأمام في حل معضلات العالم .

ان أهم موضوع ظل الفلاسفة الإسلاميون يحومون حوله في جميع الادوار ، هو محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة . ولعل انصراف المفكرين الى هذا البحث كان من اكبر العوامل في توجيه الفلسفة الاسلامية الى ناحية معينة ، حتى اكتسبت صبغة خاصة تميزها من غيرها ، وتجعلها مستقلة في

(١) راجع :

E. Renan : Histoire générale et système comparé des langues Sémitiques,  
Paris. 1855 p. 10.



NRH/2001H

501172

بيروت - لبنان

١٩٦٧

كثير من المسائل عن فلسفة اليونان القديمة ، التي لا ينكر تأثيرها العظيم في المسلمين ، وكذلك عن فلسفة الهند التي اقتبس المسلمون منها شيئاً طفيفاً .

ولما قام الفلاسفة الإسلاميون يحاولون تقريب تعاليم الدين من فلسفة أرسطو ، التي اعتبروها في المقام الأعلى من الحقيقة ، وأخذوا يسعون لاختضاع العقائد الدينية لمبادئ هذه الفلسفة ، كان من الطبيعي أن يثير ذلك معارضة شديدة لدى المتكلمين المسلمين ، الذين هبوا يدافعون عن العقائد الإسلامية بحجج الفلاسفة أنفسهم ، ونجحوا في التوفيق بين كثير من المبادئ الفلسفية والعقائد الدينية أكثر من نجاح علماء المسيحية ، الذين حاولوا ذلك أيضاً بعد انتقال آراء أرسطو وشروحه الإسلامية إلى أوروبا . ولا شك في أن السبب في تفاوت هذا النجاح يرجع قبل كل شيء إلى بساطة أسس الدين الإسلامي ، بالنسبة إلى التعاليم المسيحية المركبة . وترجع أولى محاولات التوفيق بين الدين والعقل في العالم الإسلامي إلى المعتزلة ، الذين ساقهم البحث في العقائد الدينية إلى معالجة بعض المسائل الفلسفية ، فرغبوا لذلك في الاطلاع على مؤلفات الفلاسفة اليونانيين . وهكذا كان مذهب المعتزلة من أهم العوامل في اندفاع المسلمين ، إلى ترجمة كتب أرسطو وغيره من القدماء إلى اللغة العربية .

وقد انتشرت مبادئ الفلسفة اليونانية بسرعة بين المسلمين ، وقام «أخوان الصفا» يحاولون في رسائلهم نشر هذه المبادئ ، ويستندون إليها في نقد الأديان والانظمة الاجتماعية السائدة .

فأصبح من الصعب بعد ذلك على علماء الكلام الدفاع عن العقائد الإسلامية دون الاستناد إلى الحقائق والشواهد العلمية . ولا شك في أن انتساب «الإمام الأشعري إلى المعتزلة ، واشتغاله بالمسائل الفلسفية قبل

قيامه لدعم عقيدة أهل السنة ، كان له تأثير كبير في إدخال كثير من النظريات العلمية في علم الكلام ، مثل « نظرية الجوهر الفرد » ، التي أخذها المتكلمون عن فلسفة اليونان الطبيعية ، ولكنهم توسعوا فيها واستخدموها لأغراضهم الدينية . وكان طبعاً أن يصيب النظريات العلمية شيء من التبدل ، حتى تصلح لخدمة مقاصد المتكلمين . وهكذا انتهى الأمر إلى حالة شاذة نرى فيها الفلاسفة يحاولون إخضاع العقائد الدينية لنظرياتهم العلمية ، بينما نجد المتكلمين من جهة أخرى يسعون لتبديل النظريات العلمية بحسب ما تقتضيه التعاليم الدينية .

على أن قسماً من رجال الدين لم يطمئنوا إلى مثل هذه الأساليب ، فرأوا أن الوصول إلى المعرفة الإلهية ، بطريق علماء الكلام أو الفلاسفة ، غير ممكن ، فقاموا يدعون إلى انتهاج سبيل العبادة العملية ، والكشف الباطني ، والمجاهدة المحضة . وهكذا نشأت «طريقة الصوفية» التي يظهر في كثير من تعاليمها تأثير المذاهب الفارسية والهندية .

تتمثل لنا نتيجة هذا التطور العام الذي اجتازته العالم الإسلامي في حياة شخصية فذة من عظماء الإسلام ، هو الإمام «أبو حامد الغزالي» ، الذي قال عنه «رينان» : « إنه الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتبه لنفسه طريقاً خاصاً في التفكير الفلسفي » . وقد استعرض الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» المذاهب الأساسية في التفكير الإسلامي ، فناقش طرق المتكلمين والفلاسفة ، والباطنية ، والصوفية ، ثم قام يدعو إلى طريقته الخاصة ، التي تقرب من الصوفية ، ولكنها تشتمل على عناصر كثيرة من الطرق الأخرى . ولا عجب في ذلك ، فإن الغزالي قضى شطراً غير قصير من حياته في التفتيش عن الحقيقة الدينية ، وبحث في كل واحد من المذاهب بأقصى ما يمكن من الاندفاع والتعمق ، والاستقصاء ، فأخذ من كل منها بحظ وافر ، حتى تميزت طريقته من غيرها بخواص

يمكن لذلك ان نعتبرها محصول الجهود الفكرية الماضية ، ونتيجة المباحث الاسلامية ، والحل الوسط الذي وصل الفلاسفة اليه في مسائل الدين والفلسفة .

ان حياة الغزالي مفعمة بالغرائب ، قد تخللها كثير من العواصف والانقلابات ، وهي ترشدنا الى تفهم نفسية هذا المصلح الكبير ، والمفكر السامي ، والمبصري العظيم ، وتصور لنا تطوره الفكري أحسن تصوير .

### حياة الغزالي

ولد « حجة الاسلام » الإمام ابو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي سنة ( ٤٥٠ هـ - ١٠٥٩ م ) بمدينة « طوس » في « خراسان » ، وكان والده يشتغل بغزل الصوف ، توفي وهو لا يزال صغير السن ، فوصى به مع اخيه « أحمد » صديقاً له من المتصوفة ، فرباهما على العبادة ، والعلم ، ونصحهما بالالتجاء الى مدرسة ليحصل على قوتها . وهكذا انقطع الأخوان الى العلم .

وقد ظهرت على « محمد الغزالي » آثار النبوغ والذكاء منذ الصغر ، فكان فكره الجوال ، وخياله الواسع ، يدفعانه الى الخروج من آفاق الفقه الضيقة ، واخذ وهو لا يزال شاباً ، يبدي عدم اطمئنان الى ادلة المتفقيين الملفقة . وقد سافر الى « نيسابور » للتبحر في علم الكلام على احد كبار الصوفيين ، وهو « امام الحرمين » ، وهناك درس المذاهب واختلافها ، وتعلم الجدل والمنطق ، وقرأ الفلسفة ، وابتدأ منذ ذلك الوقت بالكتابة والتأليف . وربما كانت نشأة شكوكه في العلم هناك ايضاً .

وبعد موت « امام الحرمين » ( سنة ١٠٨٥ ) تعرف الغزالي بوزير

السلجوقيين « نظام الملك » ، الذي أسس في بغداد المدرسة النظامية ، وهي تعد أول جامعة للعلوم بالمعنى الحديث ، فعين الغزالي استاذاً فيها سنة ( ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م ) . ونال هناك شهرة واسعة ، « لفصاحة لسانه » ، ونكته الدقيقة ، وإشاراته اللطيفة » .

وفي بغداد انصرف الغزالي الى دراسة الفلسفة دراسة عميقة ، فطالع كتب الفارابي ، وابن سينا ، وألف على أثر ذلك كتابه « مقاصد الفلاسفة » ، الذي يدل على اطلاع واسع ، ومعرفة دقيقة بالفلسفة . وقد قال « الامام الغزالي » لتسوين عمله هذا : انه اراد الابتداء تشرح آراء الفلاسفة ، قبل الاقدام على نقدها ، وإبطالها . ولئن امتاز كتاب « مقاصد الفلاسفة » ببحثه العلمي والتزامه الحياد التام ، لقد أشارت جميع الدلائل الى ان الغزالي لم يؤلف هذا الكتاب عن رغبة مجردة في العلم ، بل سعياً لطمأنة شكوكه الفكرية وتهئية اضطرابه الباطني . والدليل على هذا أيضاً انه ألف بعد ذلك كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » لابداء شكوكه في قيمة العلم ، وبراهينه المنطقية .

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يعتزل التدريس ، ويترك الاهل ، والوالد ، والمال . ويخرج من بغداد في سنة ( ١٠٩٥ ) بعد إتمام تهافت الفلاسفة ، أو بعد ذلك بقليل . ولم يستقر رأيه على رفض ما ناله من جاه ، وتقدم ، وشهرة ، إلا بعد تردد طويل ومجاهدات نفسية عنيفة . إن مثله الاعلى كان أسمى من هذه الدنيا ، وقد عرف انه يستطيع مكافحة رذائلها ، وإبطال علومها عن غير طريق العلم ، الا أنه تيقن أنه يجب عليه سلوك طريقة أخرى ، ترتفع به فوق هذا العلم ، وينفذ بها الى أعماق الحقيقة .

وقد أصيب في هذه المدة بمرض شديد قطع عنه كل أمل في الحياة ،



وانكشفت له أثناء ذلك مهمته الحقيقية ، فآخذ في تهذيب نفسه بالرياضة ، والتأريخ الصوفية ، حتى يستطيع التأهب للمستقبل ، والقيام بمهمة الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في العالم الاسلامي . ولم كان الاسلام في حاجة قصوى إلى قيام رجل كالغزالي ، يهيء نفسه للدفاع عن العقيدة الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الفرسان الصليبيون في أوروبا يتأهبون للهجوم على بلاد المسلمين . وكان الغزالي يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يستطيع إصلاح غيره بعد إصلاح نفسه ، وأنه يقدر أن يكون من المجددين للدين ، الذين يقول الحديث فيهم : « إن الله يرسلهم على رأس كل مئة (١) » .

خرج الغزالي من بغداد قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام ، فظل مدة عشر سنوات تائهاً ، ينتقل في زى الفقراء ، من دمشق إلى القدس ثم إلى مصر ثم إلى الاسكندرية ، وكان يقضي كل أوقاته في العبادة معتكفاً ، زاهداً ، يجاهد نفسه ، ويقهرها ، يحول في البلدان ويزور المساجد ، ويأوي إلى القفار ، ويزوي في المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن .

ثم انتهى الغزالي من هذه الرحلة ، بعد أن عزم على الدعوة إلى الإصلاح بطريق العمل ، وقام يؤلف كتابه « إحياء علوم الدين » ؛ ثم رجع إلى « نيسابور » ، فانتقطع إلى الدرس ، والوعظ ، والعبادة ، ومات في موطنه طوس ( سنة ٥٠٥ هـ - ١١١١ م ) .

وتدل ترجمة الغزالي على أن هناك صلة وثيقة بين حياته وتطوره الفكري ، فكما دفعته اضطراباته الباطنية وشكوكه الفكرية ، إلى تنيير مجرى معيشته ، كذلك أثرت رحلته ، واعتكافه ، ورياضته ،

في توجيه افكاره ، وتحديد طريقته ، وشوقه إلى الإصلاح العلمي في الدين ..

ويظهر أن الغزالي لم يترك الكتابة والتأليف ، حتى في فترة السنوات العشر ، التي قضاها في التنقل والعبادة .. وقد كتب في تلك المدة قسماً كبيراً من « إحياء علوم الدين » ، وكثيراً من كتبه الدينية ، وبلغت مؤلفاته عدداً ضخماً ، وتدور مباحثها كلها حول الفكرة الدينية ، التي شغلت حياته . وهذا ما يجعل لها ميزة نادرة ، وهي وحدة الموضوع ، ووضوح الفكرة الأساسية ، وقوة التعبير في الدفاع عن نظرياته . وفي الحقيقة لقد كان للغزالي أسلوب تتدفق منه الحياة ، بعيد عن الصناعة اللفظية ، غاية في الصراحة والوضوح . يشعر القارئ ، في كل جملة من كلامه ، بأن هناك قلباً يخفق ، وفكراً يحول ، وإرادة تملي . وقد استلقت أنظار الغزالي إلى أغلاطه اللغوية ، وطلب منه العناية بالفاظه وتراكيبه ، فأجاب أن قصده إنما هو « المعاني وتحقيقها دون الالفاظ ، وتلفيقها » . ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة ، وعلى قلة اهتمامه بصناعة الالفاظ ، فإنه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير .

ولا نريد أن نخصي هنا جميع مؤلفات الغزالي ، بل نكتفي بذكر المهم منها ، أي بماله علاقة بالفلسفة ، فنبدأ بكتاب « المنقذ من الضلال » الذي ألفه في أواخر أيامه ، والذي لا تجد في الآداب المالكية إلا قليلاً من أمثاله من ناحية الموضوع . فهو يشرح تطور الغزالي في التفكير ، والسعي وراء الحقيقة ، لا بل هو يترجم عن حياته الفكرية ، ويشرح شكوكه ، ومباحثه في مختلف المذاهب ، قبل الوصول إلى رأي يطمئن إليه .

ثم كتاب «مقاصد الفلاسفة» ، و «تهافت الفلاسفة» ، و «معيار النظر» في المنطق ، ثم «ميزان العمل» في الأخلاق . وأهم مؤلفاته وأكبرها كتاب «أحياء علوم الدين» . الذي شرح فيه طرق النجاة للمسلمين ، ببيان حقيقة العقائد ، وتفصيل المعاملات ، والعبادات .

### فلسفة الغزالي

ان الأثر العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الاسلامي ، يرجع في الدرجة الاولى الى أنه كان المفكر الاول ، والوحيد الذي لم يكتف ، مثل علماء الكلام ، باقتباس بعض مسائل الفلاسفة ولا محاولة نقض بعض آرائهم ، بل قام يسعى لتهديم كل البناء الذي انشأه الفلاسفة الاسلاميون على أساس الفلسفة اليونانية ، فشرح لهذه الغاية جميع نظرياتهم من الوجهة العامة ، وحاول إظهار ضعف براهينها وفساد نتائجها ، مستنداً في كل ذلك إلى نظرية خاصة له في المعرفة ، تدل على دقة المشاهدة ، وعمق النظر ، وقوة التفكير .

فقيمة الغزالي الفلسفية تظهر في الناحية السلبية قبل غيرها ، أي في قوة نقده للنظريات الفلسفية . وهو في ذلك كثير الشبه بالفيلسوف الانكليزي «دافيد هيوم» (David Hume)

على أن عمل الغزالي لم يقف عند النقد والتهديم ، كما هو الحال عند معظم المشككين ، بل تعداهما الى تشييد صرح ديني وأخلاقي شامخ لا تُنتكر مكانته في حضارة الاسلام الفكرية ، رغم أنه كان قائماً على أسس قديمة ، ورغم أن علاقته المباشرة بالفلسفة كانت محدودة جداً .

وقد نجح الغزالي بصورة خاصة في معالجة مسألة الخلاف بين الفلسفة

والدين ، وهي التي شغلت الافكار عصوراً طويلة ، فعرف كيف يحدد البحث في الموضوع ، واستطاع أن يتوصل الى حل لا يزال حتى اليوم نعترف له فيه بالابداع ، والطرافة ، وقوة الحجّة ، ونشعر بكثير من الاعجاب به ، بل والاطمئنان اليه .

ظلت أفكار الغزالي في بادئ الأمر تتردد مدة طويلة بين الدين والفلسفة ، رغم أن الناحية الدينية كانت في الباطن أقوى عنده من الناحية العلمية - الفلسفية . ولم تتجاذبه الشكوك ، ويطول به البحث والتفكير ، الا لان فكره الثاقب ، وشعوره الحي ، وعاطفته القوية ، لم تطمئن إلى مذاهب المتكلمين ، وأدلتهم المصطنعة في اثبات حقيقة الدين .

ومع أن شكوك الغزالي لم تستمر الا فترة محدودة توصل بعدها الى معرفة اليقين ، فان هذه الشكوك تستحق كل الاهتمام من الوجهة الفلسفية ، لانها تدل على نظرة عميقة في نظام الكون وتطوره ، ولانها تتعلق بمسائل اساسية في الفلسفة ، لم ينتبه لها القدماء ...

فهو قد بحث في نظرية المعرفة ، ومعيار اليقين ، وتوصل بعد الشك الى بيان حقيقة العلم ، بطريقة الحدس الباطني وبأسلوب يذكرنا بأساطين الفلسفة الحديثة .

يفضل الغزالي على المتكلمين والصوفية أو الفلاسفة ، الذين اقتبس عنهم جميعاً ، بانه سعى لاعطاء كل شيء حقه . والدليل على ذلك انه لم يحاول ، مثل المتكلمين ، اخضاع العقل ومدرجاته لعقائد الدين . ولم يعمل كالفلاسفة ، على حصر الإيمان الديني في قوانين العقل واحكامه ، ولم ينصرف كالصوفيين ، الى ناحية الكشف ، والنظر الباطني ، مهملًا الى جانب ذلك العلوم العقلية والعبادات الدنيوية .

لا ينكر الغزالي الحقائق العلمية ، سواء أكانت رياضية أم طبيعية ، بل يقول ان الحساب ، والهندسة والفلك ، والطبيعات ، علوم حقيقية لا شك في صحة براهينها ، وفائدة استنتاجاتها .

ولكن العلم محدد النطاق ، فكما انه لا يجوز بناء العلوم على الاعتقاد كذلك لا يجوز حصر الدين في احكام العقل وبراهين المنطق بل إن لكل من هاتين الناحيتين مصدراً خاصاً : العلم يستند الى العقل ، والدين ينبجس من القلب .

وقد رأى الغزالي ، لإثبات هذا الرأي ، أن يناقش الفلاسفة مناقشة عنيفة في مدعياتهم ، وفي محاولاتهم اخضاع الدين للعقل . فاعترض عليهم في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، في عشرين مسألة رآها مخالفة للدين ينبغي تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في الاخرى .

والمسائل الاساسية الثلاث التي كَفَّرَ الفلاسفة فيها هي :

١ - قدم العالم وأزليته ،

٢ - اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات ،

٣ - إنكار حشر الاجساد .

ان المسألة الثالثة ليست ذات قيمة كبيرة من الوجه الفلسفي . ولكن المسألتين الاولى والثانية قد اضطرتا الغزالي الى مناقشة كثير من النظريات العلمية والفلسفية ...

فمن المسائل الفلسفية التي تعرّض لها الغزالي مسألة المكان والزمان . فهو لا يريد ان يجعل فرقاً بينها كما يفعل الفلاسفة : إذ يعتقدون أن العالم له نهاية ، وان المكان محدد ، بينما هم يقولون إن الزمان لا مبدأ له ولا نهاية . إزاء ذلك يلاحظ الغزالي انه لا فرق بين الزمان والمكان

فيقول : « كما ان البعد المكاني تابع للجسم ، فالبعد الزماني تابع للحركة ، فإنه امتداد الحركة ، كما ان ذاك امتداد اقطار الجسم ... فلا فرق بين البعد الزماني الذي تنقسم العبارة عنه الإضافة إلى « قبل » و « بعد » وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه عند الإضافة الى « فوق » و « تحت »<sup>(١)</sup> .

ومعنى ذلك ان الزمان والمكان هما علاقة بين الاجسام ، أو بالأحرى هما علاقة بين تصوراتنا . ولذلك وجد بعضهم أن رأي الغزالي يقرب كثيراً من نظرية « كانت » التي تقول ايضاً : إن الزمان والمكان ليسا من المعاني الكلية ، بل هما صورتان قبليتان سابقتان للتجربة نستعين بهما على إدراك العالم الخارجي .

على ان أهم مسألة فلسفية تعرض لها الغزالي هي السببية . فهو يقول : « إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً ، وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ؛ بل كل شئئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات احدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر ، فليس على ضرورة وجود احدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما عدم الآخر ؛ مثل : الري ، والشرب ، والشبع ، والاكل ، والشفاء ، وشرب الدواء .. وهم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب ، والنجوم ، والصناعات ، والحرف . وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوي ، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق ... »<sup>(٢)</sup> .

ثم يزيد ذلك شرحاً فيقول : « وليس لهم من دليل إلا مشاهدة

(١) تهافت الفلاسفة ص ٦٥ .

(٢) تهافت الفلاسفة ص ٥٦ .

حصول الاحتراق عند ملاقة النار ؛ والملاحظة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به ، وأنه لا علة سواه <sup>(١)</sup> .

وخلاصة رأي الغزالي في ذلك : أننا نشاهد تعاقب حادثتين فنسمي الاولى منها سبباً والثانية مسبباً . على ان مجرد اعتيادنا مشاهدة هذا التعاقب لا يسمح لنا بان نجعل الحادثة الاولى علة لوجود الثانية - كما يقول قانون السببية . ولا يمكن ان نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهدتنا حتى الآن على ان ذلك يجب ان يكون دائماً لا يُتصور تغيره أبداً .

إن هذا معناه إنكار السببية في حوادث الطبيعة . وقد أجاب ابن رشد عن ذلك قائلاً : « إن من رفع الأسباب فقد رفع العقل .. فرفع هذه الاشياء هو مبطل للعلم ورافع له . » <sup>(٢)</sup>

ولابن رشد كل الحق في هذا القول : لأن جميع العلوم تستند الى قانون السببية .

ليس الغزالي المفكر الوحيد الذي حاول أن ينكر الضرورة العقلية لقانون السببية ، فان « دافيد هيوم David Hume » الذي جاء في القرن الثامن عشر انتقد قانون السببية ايضاً وقال مثل الغزالي ، انه لا يوجد هناك دليل عقلي لنا على ضرورة وجود علاقة بين السبب والمسبب ، وإنما اعتيادنا أن نرى المسبب يعقب السبب بانتظام في جميع مشاهدتنا جعلنا ندعي أن الاول علة وجود الثاني . وهذه الملاحظة لا تكفي لاثبات وجود علاقة ضرورية بينهما كما ينص قانون السببية العام .

(١) تهافت ص ٦٦ .

(٢) تهافت التهافت ص ١٢٢ .

ولكن رغم هذا الانتقاد ظل « هيوم » يمتدد ضرورة التمسك بقانون السببية ، الذي لا يمكن ان تقوم العلوم بدونه ، وهو لم يعترض إلا على إرجاع هذا القانون الى ضرورة العقل . وقال : « ان اعتيادنا على صحة قانون السببية إنما نشأ عن غريزة وعادة طبيعية في البشر ، نجعلنا نتيقن يقيناً باطنياً ان كل حوادث العالم لا يمكن ان تخالف النظام الدائم الثابت » .

وقد فطن الغزالي نفسه الى ان أنكار السببية ينتهي بنا الى ارتكاب محالات شنيعة حتى يجوز عندنا انقلاب الكتاب حيواناً ، وجرة الماء شجرة تفاح وغير ذلك <sup>(١)</sup> .

فأجاب على ذلك قائلاً : « ان الله تعالى خلق لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها ؛ ولم ندع ان هذه الأمور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز ان تقع ، ويجوز ان لا تقع ، واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ في أذهاننا جبراً عليها على وفق المعادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه .. إنه لم ينبت من الشعور خنطة ولا من بذرا الكمثرى تفاح .. ولكن من استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الانبياء » <sup>(٢)</sup>

وهنا نصل الى العامل الذي دفع الغزالي الى انكار الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو إنما يريد ان يترك مجالاً للمعجزات ، فلم ير بأساً في إخضاع العقل والعلم لمعقيدته الدينية .

والحقيقة ، ان الدين هو الذي كان مسيطرأ على تفكير الغزالي ، ولم تنشأ شكوكه في احكام العقل إلا في سبيل الدفاع عن حقيقة الدين . وهو قد نجح في إرجاع اصل الدين الى الكشف الباطني ، والايمان القلبي ، ولكنه لم يستطع

(١) تهافت ص ٦٨

(٢) تهافت ص ٦٧ - ٦٨

المنقذ من الضلال (٢)

عند تحديد نطاق كل من الدين والعقل ان يقف عند الحد اللازم . فلم يتردد في اخضاع العقل للدين حينما اضطر لإثبات معجزات الانبياء ، بينما كان الفلاسفة على العكس من ذلك ، يخضعون الدين للعقل ، اذا اعتقدوا تناقضاً بينهما . واليك رأي الفلاسفة المسلمين في المعجزات ، كما شرحه ابن رشد في الرد على الغزالي ، قال :

« .. فيكون تصديق النبي ان يأتي بالخارق ، وهو ممتنع عن الانسان ، ممكن في نفسه . وليس يحتاج في ذلك ان نضع ان الامور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الانبياء . وإذا تأملت المعجزات التي صح وجودها ، وجدتها في هذا الجنس ؛ وأبينها في ذلك كتاب الله العزيز الذي لم يكن كونه خارقاً من طريق السماع ، كإنقلاب العصا حية ، وإنما ثبت كونه معجزاً بطريق الحس ، والاعتبار لكن انسان وجد ، ويوجد الى يوم القيامة . وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات ، فليكتف بهذا من لم يقنع بالسكوت عن هذه المسألة ، وليعرف ان طريق الخواص في تصديق الانبياء طريق آخر - قد نبه عليه « ابو حامد » في غير ما موضع ، وهو الفعل الصادر عن الصفة التي فيها سمي النبي نبياً ، الذي هو الاعلام بالغيوب ، ووضع الشرائع الموافقة للحق ، والمفيدة من الأعمال ما فيه سعادة جميع الخلق .. »<sup>(١)</sup>

وقد حاول الغزالي ان يعطل المعجزات تعليلاً طبيعياً فقال : « وكذلك احياء الميت ، وقلب العصا ثعباناً ممكن بهذا الطريق . وهو ان المادة قابلة لكل شيء : فالتراب ، وسائر العناصر يستحيل نباتاً ، ثم النبات يستحيل ، عند اكل الحيوان له ، دماً ثم الدم يستحيل منياً ، ثم المنى ينصب في الرحم فيخلق حيواناً وهذا بحكم العادة واقع في زمن متطاوّل . فلم يحيل الخصم ان يكون في مقدورات الله تعالى ان يدير المادة في هذه الأطوار في وقت اقرب مما عهده »<sup>(٢)</sup>

(١) تهافت : التهافت ص ١  
(٢) تهافت : ص ٦٨

ولم يقبل وجدان ابن خلدون العلمي إلا ان يحجب على هذا السؤال في سياق الكلام على موضوع آخر فقال : إن الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في افعالها وترتكب الأعوص والأبعد .<sup>(١)</sup> ثم صرح في مكان آخر : « وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والمصائب ، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء ، لكنه إنما اجزى الأمور على مستقر العادة . »<sup>(٢)</sup>

ان السببية الوحيدة التي يعترف بها الغزالي هي التي ترجع الى إرادة حرة واختيار تام ومعرفة شاملة ، وهي التي نستدل بها على حقيقة الاله . فان « المبدأ الاول ، اي الله ، عالم ، قادر ، مريد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، يخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد ، وعلى ما يريد . »<sup>(٣)</sup>

واذا تساءلنا عن الحجة التي نستند اليها في الاستدلال على وجود الاله ، واردنا البحث في كيفية صدور الفعل من الله بالإرادة ، اجابنا الغزالي ان هذا فضول وطمع في غير مطمع ، لأن « هذه الامور مما لا تتسع له القوى البشرية »<sup>(٤)</sup> وفي الناس من يذهب الى ان حقائق الامور الالهية لا تتنازل بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها .<sup>(٥)</sup>

وإنما يعتقد الغزالي ان الكشف الباطني واليقين الشخصي والحس مما يثبت لنا وجود الله لأن نفس الانسان قبس من نور الله . وقد اكتفى الغزالي باقتباس هذا النوع من المعرفة الوجدانية عن الصوفية ، ولم يوافق على مذاهبهم المختلفة في الحلول والاتحاد والوصول ،<sup>(٦)</sup> ولم يعترف بنظرية وحدة الوجود التي تجعل الطبيعة ايضاً جزءاً من القوة الالهية .

(١) ابن خلدون : منتخبات ، ص ٤٦ ( مكتب النشر العربي بدمشق ) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم .

(٣) تهافت ، ص ٢٢

(٤) تهافت ، ص ٢٢

(٥) تهافت ، ص ٤٤

(٦) المنقذ ، ص ١٠٧

وكذلك يخالف الفيزالي الفلاسفة الإسلاميين في قولهم إن الله لا يعلم إلا نفسه، ولأنه لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمن إلى «الآن» وإلى «ما كان» و«ما يكون»، وأنه لا يمكن أن يكون خلق العالم من لا شيء، فلنهم يتصورون جوامع للعالم عبارة عن تحول دائم في أعراض الجوهر وصوره إلى المادة نفسها، ثم انتقال من يمكن إلى يمكن آخر.

لكن الفيزالي يتساءل: ألا يحدث شيء جديد في العالم؟ ألم تكن العقول التي يقسمها ابن سينا إلى درجات مختلفة، شيئاً جديداً مطلقاً؟ حقاً، أن الأسباب والمسببات لانهاية لها، ولا يستطيع الفكر الإحاطة بها. ويجب الاعتراف أن نظام الصور والعقول الذي فصله ابن سينا لم يستطيع المقاومة تجاه انتقادات الفيزالي الصائبة.

قال الفلاسفة الإسلاميون: إن حقيقة الإله هي العقل والعلم، أما الإرادة فإنها تنشأ عن الحاجة، ولذلك فهي نقص. ولكن الفيزالي يرى أن وحدة الحقيقة الإلهية إنما تتمثل في الإرادة قبل غيرها، وهو يقول، معارضاً الفلاسفة إن الله يعرف العالم، لأن إرادته هي التي اقتضت وجود هذا العالم. ويمكن انتقاد الفيزالي بأنه قد ضحى بفكرة حدوث العالم، التي يريد إثباتها وبفكرة اختيار الإنسان، التي لا يود التنازل عنها، في سبيل انقاذ الإرادة الإلهية الأبدية.

تتمتاز أخلاق الفيزالي بعمق التحليل النفسي الذي يصف به الفضائل كفضيلة الصدق، وفضيلة الصبر، وفضيلة الاخلاص، وواجب المرء نحو نفسه، وواجبه نحو اخوانه في الدين، وحقوق الجوار، وحقوق الوالدين، وحقوق المرأة والأبناء والإخوة؛ وهي على الجملة تبحث في الفضائل الجزئية، من غير أن ترقى إلى البحث في مبدأ الأخلاق، وأساس الفضائل وغايتها. إن تحديد غاية العمل الإنساني مسألة فلسفية لم يخصصها الفيزالي ببحث منفرد، لأن البرهان على مبدأ الأخلاق يقتضي الخروج على شرائط اليقين التي ذكرها في «مقياس العلم». نعم،

إن الفيزالي وضع للعمل ميزاناً «ترقى به عن حد التقليد إلى حد الوضوح»<sup>(١)</sup> ولكنه لم يعقد الكلام على أساس هذا الميزان بحثاً خاصاً، بل اقتصر على وزن الفضائل به من غير أن يبين ما هو، وهو يمتاز كما قلنا بتدقيقه في وزن هذه الفضائل، وتحليلها تحليلًا نفسياً صحيحاً. ولذلك كانت مباحثه في الأخلاق أقرب إلى المباحث النفسية منها إلى المباحث الفلسفية. ولعلنا إذا رجعنا إلى تحليل هذه الفضائل نستطيع أن نستخرج منها، على طريقة الاستقراء، مبدأ الفيزالي في فلسفة الأخلاق. فالفيزالي يقول في كثير من المواضع إن الفضائل خاضعة لحاكم العقل ومقتدة بالشرع، ويقول في ميزان العمل<sup>(٢)</sup>: «وإما الشجاعة فهي فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية»، ومع قوة الحماية متفاداً للعقل المتأذب بالشرع في إقدامها وإحجامها، وهي وسط بين رذيلتيها المظيفتين بها، «وهما التهور والجبن». والعفة فضيلة القوة الشهوانية، وهي وسط بين الشره والخلود، فيكتنف إذن كل فضيلة رذيلتان هما الإفراط والتفريط، إلا العدل فلا يكتنفه إلا رذيلة الجور المجاورة له، لأنه ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط<sup>(٣)</sup>. فالفضيلة بالجملة ووسط بين الإفراط والتفريط. والكمال في الاعتدال، ومقياس الاعتدال العقل والشرع<sup>(٤)</sup>. وكل من اطلع على تحليل أرسطو للفضيلة، وتحديد بها الاعتدال، أدرك الصلة التي بين الفيزالي وبينه. فالفيزالي لم يقتصر في تحليل هذه الفضائل على الشرع بل اقتبس من كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس الكثير من الآراء، ولذلك تجدده يجعل مقياس الاعتدال العقل والشرع معاً. فالخير ليس ما قرره العقل وحده، بل ما قرره العقل المتأذب بالشرع، وهذا يجعل الشرع فوق العقل، ويذكرنا بمذهب اللاهوتيين أمثال

(١) ميزان العمل : ص ٢٠

(٢) ميزان العمل : ص ٨٥

(٣) ميزان العمل : ص ٩١

(٤) ميزان العمل : ص ٨٨

(دون سكوت)، و(آبه - لار) و(جرسون) وغيرهم من الذين جعلوا الخير تابعاً لإدارة الخالق. فالخير ليس خيراً بالذات، وإنما هو خير بإرادة الله. فالغزالي اذن بعيد في الأخلاق عن رأي « المعتزلة »، ومخالف للفلاسفة، ولعله أن يكون اقرب الى الصوفية المعتدلة منه الى رأي الفلاسفة الالهيين. وتنقسم الفرق عنده الى أربع وهي :

١ - فرقة المتبعين للأنبياء؛ ٢ - فرقة الالهيين الاسلاميين من الفلاسفة ٣ - فرقة الصوفية؛ ٤ - فرقة الجماهير المحقّ الذين زعموا أن الموت عدم محض. وقرر ان الفرق الثلاث الاولى تنفق في القول ان الحماقة كل الحماقة في فتور الايمان. ان المعنى في اتباع الشهوات، المعرض عن النظر في المعقولات شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، فعلى العاقل ان يسلك سبيل السعادة. وليست السعادة مقصودة على الدنيا، وإنما هي بما وصفه الشرع، ووعد به النفوس الصالحة في الآخرة.

فالسعادة في نظر الغزالي لا تنال الا بالعمل والعمل. ولكل منها مقياس : فمقياس العلم يميز بين الصحيح والفاقد، وميزان العمل يفرق بين العمل المسعد والعمل المشقي، وطريقة العمل المسعد هو التجرد من علائق الدنيا، والترفع عن الشهوات، ومخالفة الهوى والتفكير في الامور الالهية.

ان مذهب الغزالي في الأخلاق هو مذهب الصوفية المعتدلة، لأنه لا يوافق القائلين بالاتحاد والحلول، بل يقول أن أعلى درجات السعادة التي تحصل للانسان تقربه الى الله تعالى تقريباً، لا بالمكان والمسافة، ولكن بالمعنى الحقيقي (١). وقد أخذ من الفلاسفة مبادئهم في تحليل الفضائل، وجعل السعادة في سلوكها، ولكنه أضاف الى ذلك كله ذوقاً خاصاً في التحليل، وتتويماً لأحكام العقل بتعاليم الشرع.

ان نظرية الغزالي الدينية لا تخلو من استدلالات فلسفية : فهو قد اقتبس من الفلاسفة كثيراً من الآراء، سواء عن قصد او غير قصد. وجعل فكرة الاله بعيدة جداً عن التجسيم، وصور البعث والحياة الآخرة تصويراً روحانياً محضاً.

ونستطيع أن نلخص فلسفة الغزالي بقولنا : إنها صورة صادقة لحياة الشخصية، وإنما بقدر ما أهملت البحث في حوادث هذا العالم، ازدادت تعمقاً ونفوذاً في ماهية الدين. ولا شك في أن الغزالي قد ارتفع على مستوى الفلاسفة الذين تمسكوا بالعقل، واعتبروا الدين من منتوجات الخيال، او اختراعات المشترعين. فخالفهم في ادراك كنه العقيدة الدينية وشرحها وقال إنها كشف باطني وحقيقة روحية. ولا يمكن التردد في تفضيل محاولات الغزالي للوصول الى الحقيقة العليا على مباحث الفلاسفة الذين اقتصروا في الغالب على تكرار ما قيل قبلهم (١).

### تحليل المنقذ من الضلال

وصف الغزالي في كتاب « المنقذ من الضلال » ما قاساه من الاضطراب النفسي عند مقابلة الفرق بعضها ببعض، وما ارتضاه أخيراً من طريقة التصوف، ثم ما صرفه عن نشر العلم ببغداد، ومعاودته له بنيسابور، كل ذلك بأسلوب مؤثر تغلب فيه اللهجة الخطابية على الحجاج العقلي، والبرهان المنطقي. وليس في « المنقذ من الضلال » مذهب فلسفي مستقل، ولا نظرية مجردة وإنما هو حكاية حال الغزالي نفسه، وذكر انحلال رابطة التقليد عنه، واستيلاء الشك عليه، ثم استشفائه بأدوية التصوف.

(١) راجع دي يور، تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٤٩ - ١٥٠

فالمنقذ لا يحتوي اذن الا على القليل من فلسفة الغزالي . ومن أراد الاطلاع على هذه الفلسفة فليطلبها من كتاب «التهافت» وكتاب «المقاصد» ، وكتابي «الأحياء» و «ميزان العمل» .

وضع الغزالي كتاب «المنقذ من الضلال» في أواخر أيامه بعد عزلة دامت عشر سنوات ، سلك فيها طريقة الصوفية : وهو يشير فيه الى كتبه الأخرى كالتهافت ، والقسطاس المستقيم ، والمستظهر ، والمقاصد ، وفيصل التفرقة ، وغيرها . وهذا يدل على أنه ألّفه بعد هذه الكتب كلها ، وبعد أن أناف العمر على خمسين<sup>(١)</sup> فهو اذن من انتاج سن النضج ، وهذا ظاهر أيضاً في اعتدال أسلوبه ، ووضوح اشاراته ، واثلاث معانية ، وتخير ألفاظه .

### ١ - الشك

شاهد الغزالي اضطراب الفرق ، واختلاف المذاهب ، وتباين الملل في زمانه فشبّه ذلك ببحر غرق فيه الأكثرون ، فأحب أن يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته ، ويتوغل في ظلماته ، وكان ذلك بدافع طبيعي في نفسه . قال : « وقد كان التمتع إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني ، من أول امصري وريمان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلي ، لا باختياري وحيلي<sup>(٢)</sup> » . فولد هذا الفحص عن عقائد الفرق في نفس الغزالي شكاً فلسفياً ، يمازجه شيء من الايمان الصوفي ، وكان أول الشك عنده انحلال رابطة التقليد ، لأنه لم يجد فيها علماً يقيناً ، ولا وسيلة لتمييز الحق من الباطل ، فقال في نفسه : ان مطلوب العلم بحقائق الأمور ، ولكن ماهي حقيقة

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٢  
(٢) المنقذ من الضلال ص ٦٣

العلم؟<sup>(١)</sup> هل يمكن الوصول إلى حقائق الأمور عن طريق التقليد؟ ان التقليد لا يفيد علماً يقينياً ، واذا انحلت رابطته فلا مطمح في الرجوع إليه<sup>(٢)</sup> . فلا بد اذن من بيان حقيقة العلم اليقيني ماهي . ان معرفة حقيقة العلم هي من المسائل الاساسية في الفلسفة الحديثة ، لأنها أساس نظرية المعرفة . والفلسفة تحوم حول مسألتين أساسيتين هما : قيمة العلم ، وقيمة العمل . أما مسألة قيمة العلم فهي أساس المناقشات الفلسفية التي احتدمت بين (لايبنتز) و (لوك) و (مركلي) و (هيوم) و (كانت) . وأما مسألة قيمة العمل فهي أساس الفلسفة الأخلاقية . ولا تزال هاتان المسألتان الى ايامنا هذه من أهم المسائل التي تريد الفلسفة الحديثة أن تحلها . وأما مسألة العمل فهي أساس الاخلاق .

نعم ان الغزالي لم يتعمق في البحث عن حقيقة العلم ، بل أسرع في تحليل العلم اليقيني ، وتحديد شرائطه فقال : « العلم اليقيني هو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من قلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً أو إنكاراً<sup>(٣)</sup> » . ويكره علم لا تتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . ففيلسوف اليقين اذن هو الأمان ، ومعنى الأمان الثقة ، ومقياس الثقة انكشاف المعلوم انكشافاً ، لا يبقى معه ريب ولا شبهة .

وكل من قرأ تأملات «ديكارت» ، ومقالاته في الطريقة ، أدرك قيمة معيار العلم عند الغزالي ، واشترطه في اليقين ، ووضح الأفكار ، وانكشافها للعقل انكشافاً بديهاً .

ثم إن الغزالي قش عن علومه فوجد نفسه عاطلاً من علم موصوف به .

(١) المنقذ من الضلال ، ص ٦٤  
(٢) المنقذ من الضلال ، ص ٦٦  
(٣) المنقذ من الضلال ، ص ٦٤



الصفة. لأن العلم إما ان يكون بالمحسوسات ، وإما ان يكون بالعقليات ؛ فالعلم بالمحسوسات لا أمان فيه ، ولا ثقة ، لأنك « تنظر الى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على انه أكبر من الارض في المقدار » (١). وكذلك العلم بالعقليات لا يقين فيه ولا ثقة ، لأنه يمكن ان تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها الى العقل ، كنسبة اليقظة الى النوم . فكيف الثقة بالعقليات ، ورجح يأمن الانسان ان يكون كل ما يعتقد به عقله من جنس ما أطلع عليه حسه ؟ فالعقل يكذب الإحساس ، والاحساس يكذب العقل ، كأن هناك مأساة محزنة تنتصر فيها العقليات على المحسوسات . قال الغزالي : « فقالت المحسوسات : « تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثفتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً في فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلّى كذب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه » (٢)

إن في هذا التحليل شيئاً من التوهم ، لأن المحسوسات والعقليات لم تمثل في نفس الغزالي هذه الأدوار المفجعة التي وصفها ، ومن الصعب تحديد مدة هذا الشك ، وتعيين حدوده ، وحصر عناصره في خطاب العقليات للمحسوسات على هذه الصورة البسيطة . على ان هذا النزاع بين العقليات والمحسوسات يدل على أسلوب الغزالي ، وطريقته الخطابية ، ومجادلته الكلامية . لذلك كثيراً ما نجده يحاول الاقتناع بالمقول والمسموع معاً ، فلا يؤثر في عقل القارئ فحسب ، بل يستعين على ذلك بشعوره وقلبه وحده .

ولولا هذا الحدس ، لما خرج الغزالي من الشك ، ولبقي ، كما يقول ، على مذهب السفسة . فالأدلة العقلية لم ترجع اليقين الى قلبه ، لأن الدليل لا يكون إلا

(١) المنقذ ص : ٦٦

(٢) المنقذ ص : ٦٦

من العلوم ، فإذا كانت العلوم غير مسلم بها ، لم يكن الدليل منتجاً . فليس في المعرفة العقلية ما يطرُدُ الشك من النفس . قال الغزالي : « وعادت النفس الى الصحة والاعتدال . ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن و يقين ، ولم يك ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قدسه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيقت رحمة الله الواسعة » (١) . والمقصود بهذا النور كشف النفس بالحدس عن البدييات ، والحقائق الاولى ، لان الأوليات العقلية لا تدرك بنظم الكلام ، وترتيب الحجج ، بل تدرك بالحدس ، وهي حاضرة في الذهن ؛ والحاضر ، كما يقوله الغزالي ، إذا طلب فقد واخفى .

ان مسألة الكشف الباطني هي من أعمق المسائل التي وردت في « المنقذ من الضلال » . ومن قرأ كتاب « التأملات » وطريقة « ديكرات » في الشك ، وانتقاله الى اليقين بالحدس الفكري ، ومعرفة الذات ، أدرك قيمة هذا النور الذي تكلم عليه الغزالي .

ان هذا الحدث مفتاح المعرفة ، ولولاه لما رجع اليقين الى العقل . نعم ، قد يكذب حاكم العقل حاكم الحس ، وقد يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر يكذب حاكم العقل ، ولكن ما الذي يضمن لنا عدم وجود حاكم آخر فوق هذا الحاكم ؟ وهكذا يتسلسل الأمر الى ما لا نهاية له . فمن الضروري إذن أن نثق بالضرورة العقلية ، ونسلم بالأوليات .

على أن فكرة الحدث هذه لم تكن عند الغزالي قاعدة لمذهب خاص ، بل اعتمد عليها لتحديد نطاق العقل ، وبيان عجزه عن حل جميع المضلات . فالعقل لا يمكن ان يكون مصدر العقيدة الدينية ، لأن الايمان يرجع الى الكشف الباطني . وبالرغم من ان الغزالي قد اقتبس فكرة الكشف هذه من طريقة

(١) المنقذ : ص ٦٨

الصوفية ، فإنه امتاز على غيره ، يحملها مفتاح العلوم ، ومصدر العقائد الدينية . وقد ترفع بها عن طريقة التقليد إلى طريقة العقل ، وجعل الحق قائما بنفسه . لا بمن قاله . فالعاقل يحب أن ينظر في الأمر ، فإذا وجده حقا قبله ، سواء كان قائله مبطلا أو محققا<sup>(١)</sup> . وليس يجوز أن يهجر كل حق سبق له خاطر مبطل ، لأنه إذا جاز ذلك ، لزم هجر كثير من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات حكماء الصوفية ، لأن صاحب كتاب «أخوات الصفاء» ، أوردتها في كتابه<sup>(٢)</sup> ، فعلى العاقل أن يعرف الرجال بالحق لا بالزجالات . والغزالي لا يشترط في الحق أن يكون معقولا في نفسه ، مؤيدا بالبرهان فحسب ، بل يشترط أن يكون أيضا موافقا للكتاب والسنة ؛ ولذلك كان حدسه العقلي مقيدا بالعقيدة الدينية . والمعرفة عند الغزالي تنقسم إلى قسمين : معرفة حسية ، ومعرفة صوفية ؛ فالعقل والتجربة هما أساس المعرفة الحسية ؛ أما المعرفة الصوفية فتستند إلى الكشف الباطني .

## ٢ - انقضاء الفرق

انحصرت الفرق عند الغزالي في أربع : فرقة المتكلمين ، والباطنية ، والفلاسفة ، والصوفية . وقد درس الغزالي هذه الفرق واحدة واحدة واستقصى ما عندها وانتقدتها .

١ - طالع علم الكلام فوجده غير واف بمقصوده ، لأن علم الكلام استندوا في الرد على أهل البدعة إلى مقدمات تشبهوها من خصومهم ، واستندوا

(١) المنقذ من ٨٧  
(٢) المنقذ من ٨٨

في مجادلاتهم إلى النقل ، وهذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئا<sup>(١)</sup> .

٢ - ثم طالع كتب الفلاسفة حتى وقف على منتهى علومهم ، فوجدهم ينقسمون ، على كثرة فرقهم ، إلى ثلاثة أقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون . وقد رد الإلهيون على الدهريين والطبيعيين ، ورد أرسطو على غيره من الإلهيين ، ولكنه استبقى من آرائهم أشياء كثيرة اتبعه فيها الفارابي وابن سينا ، فوقع فيها الأوائل من البدع .

على أن علوم الفلاسفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : منها ما يجب التفكير به ، ومنها ما يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلا . فالرياضيات مثلا لا يمكن إنكارها ، ولكن قد يتولد منها آفة إذا ظن المتعلم أن جميع علوم الفلاسفة هي في البوضوح وثيقة البرهان كالرياضيات ، مع أن كلام الفلاسفة في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني .

والمنطق أيضا لا علاقة له بالدين حتى يبعد وينكر ، إلا أن أهل المنطق ، عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، لم يمكنهم الوفاء بشروط البرهان ، بل تساهلوا فيها غاية التساهل . ذلك هو الفرق بين العلوم التقنية . والآلهيات التي كثرت فيها أغاليل الفلاسفة . وقد كفرهم الغزالي كما ذكر في كتاب «التهاافت» في ثلاث مسائل لخالفهم جميع المسلمين :

١ - قولهم أن الأجساد لا تحشر ؛

٢ - وأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات ؛

٣ - وأن العالم قديم أزلي .

أما الطبيعيات فقد ذكر الغزالي أنه ليس من شروط الدين إنكارها ، ولكن على الباحث في الطبيعيات أن يعلم أن «الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل

(١) المنقذ من ٧٢

بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها <sup>(١)</sup> وهذا يتفق مع رأي الغزالي في إنكار الأسباب، وقوله : ان كل شيء حاصل بمشيئة الله.

٢ - ثم ان الغزالي انتقد طريقة التعليمية وبين غائلتها. وليس في المنقذ عن طريقة التعليمية شيء مهم ، لأن الغزالي ألف كتباً كثيرة في الرد على هذه الفرق، ككتاب « المستظهر » ، وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب « حجة الحق » وغيرها <sup>(٢)</sup> وقد لامه بعضهم على مبالغته في تقرير حجبتهم، وسعيه في نشر آرائهم، فأجاب عن ذلك بقوله : ان هذا الكلام حق، ولكن « في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر. أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب » . ولم يعمد الغزالي الى تقرير حجة التعليمية الا لأن اصحاب التعليم اتهموا كل من يرد عليهم بالجهل ، فأراد الغزالي أن يبين لهم فهمه لحجبتهم ، فقررها أولاً ثم رد عليها. وهذا ما فعله ايضاً في الرد على الفلاسفة، فقد صنف أولاً كتاب « المقاصد » ، وأوضح فيه حجة الفلاسفة وعلومهم . ثم صنف بعد ذلك كتاب « التهافت » للرد عليهم. وبالرغم من ان الغزالي لا يريد أن يتكلف شبهة التعليمية، ولا ان يضيع الوقت في الرد على اصحاب التعليم ، فانه خصص لها في كتاب « المنقذ » فصلاً طويلاً، ذكر فيه بعض مسائلهم : كدعواهم الحاجة الى التعليم ، والى المعلم ، واعتراضهم على الحكم بالنص او بالاجتهاد . وقد ناقش كلا من هاتين المسألتين ، وبين ان هذه البدعة لم تصل الى هذه الدرجة الا من سوء نصرة الصديق الجاهل ، فقد دعت شدة التمسك بأصدقاء الدين الى مجاهدة التعليمية في كل مقدمات كلامهم. فجأحدوهم في الحاجة الى التعليم والمعلم ، وفي دعواهم انه لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم ، وليس في الامكان إنكار ذلك. انما الخلاف ليس في الحاجة الى التعليم والمعلم ، ولا في أن يكون

(١) المنقذ : ص ٨٣  
(٢) المنقذ : ص ٩٧ - ٩٨

المعلم معصوماً ، وانما هو في معرفة المعلم نفسه ، هل هو ميت أو حي ؟ فالتعليمية تقول : إن المعلم علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ، إن اختلفوا ، وأشكل عليهم مشكل . والغزالي يقول إن معلماً هو محمد ﷺ ، وإنه علم الدعاة وبشهم في البلاد ، ولكنه أكمل لهم التعليم ، « وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته » . <sup>(١)</sup>

أما مسألة الحكم بالنص أو بالاجتهاد، فقد أجاب عنها الغزالي بقوله : « إننا نحكم بالنص عند وجوده ، وبالاجتهاد عند عدمه » . وقد أثبت ضرورة الاجتهاد بقوله : إن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، فلا بد من الاجتهاد في ارجاع الوقائع الخاصة الى النصوص العامة. قال : « فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد ، إذ لو سافر الى بلدة الامام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة » . وهذا ايضاً شأن المستفتي في كل واقعة ، لأنه إذا رجع الى بلدة الامام ، تبدلت الوقائع ، وفات الانتفاع بالفتوى . فعلى العاقل ان يجتهد ويبدل وسعه فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل . اما قواعد العقائد نفسها ، فيشتمل عليها الكتاب والسنة ، ولا حاجة فيها الى الاجتهاد . وقد صنف الغزالي كتاب « القسطاس المستقيم » ، ووضع ميزاناً يعرف به الحق في الكلاميات ، وظن انه يمكنه بواسطته ان يرفع الخلاف ، ويزيل التنازع . فإذا قيل ان هذا الميزان لا يزيل الخلاف ، بل يضم الى الشبه الموجودة شبهة جديدة ، قال الغزالي : « إن المتحير ، إذا قال انا متحير ، ولم يبين المسألة التي هو فيها متحير ، يقال له : انت كمبريض ، يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه ، فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين » <sup>(٢)</sup> وكذلك المتحير ينبغي ان يعين ما هو متحير فيه ، فإذا عين الامر الذي تحير

(١) المنقذ : ص ٩٣  
(٢) المنقذ : ص ٩٧

فيه، امكن الرجوع به الى « القسطاس المستقيم » وإزالة شبهته وحيرته بيزان الحقي . فالميزان يغني عن الامام المعصوم، ويشفي من الحيرة .

أما طريقة التعليلية فليس معها شيء من الشفاء للخروج من ظلمات الآراء . وقد ضيعوا عزمهم في طلب المعلم . ولم يستطيعوا ان يتعلموا منه شيئاً .

٤ . - ثم ان الغزالي لما فرغ من انتقاد هذه الفرق اقبل بهمة على طريق الصوفية ، فوجد اهلها احسن السالكين لطريق الله ، فاطمأن اليهم ، وطالع كتبهم ، وسمع أقوالهم ، حتى اطلع على غاياتهم ومقاصدهم . وكان حاصل علمهم كما قال في المنقذ : « قطع عقبات النفس ، ولتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تحلية القلب عن غير الله تعالى » (١) .

وأعجب الغزالي بطريقة الصوفية إعجاباً لا مزيد عليه ، حتى قال : فيهم : « لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، لم يغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، وببدلوه بما هو خير منه ، لم يحدوا اليه شيئاً » (٢) . ولكن طريقة الصوفية لا تتم إلا بالغلم والعمل معاً ، وما يمكن الوصول اليه بالتعلم قليل إذا نسب الى ما يمكن الوصول اليه بالدوق ، والحال ، وتبدل الصفات . والفرق عظيم بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه ، وبين ان يكون حالك للزهد . فالصوفية أرباب احوال ، لا أصحاب اقوال . ولذلك لما حصل الغزالي علوم الصوفية النظرية ، اقبل على سلوك أحوالهم بالدوق ، والرياضة ، والإعراض عن الدنيا ، والهرب من غلائق الحياة . ولكنه نظر الى نفسه ، فوجدها منغمسة في الغلائق ، ولا حظ له من الله ، فوجدها غير نافعة في طريق الآخرة ، فرأى نفسه على شفا جزف هار . ثم اصابته أزمة نفسية ، تجاذبتها فيها شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، حتى احس بعجزه ، فسقط

(١) المنقذ : ص - ١٠٠

(٢) المنقذ : ص - ١٠٦

اختياره ، وسهل عليه هجر أعماله . لقد وصف الغزالي هذه الأزمة النفسية بلفظ بليغ ، ومعنى جزيل ، وبيان عجيب ؛ فهو لا يتكلم بلسانه ، ولا يكتب بقلمه ، بل يخاطبك بقلبه ، وروحه ذاتية في الفاظه ، وشعوره مصون عن التكلف . لا تقرأ كلامه الا وتشعر بالحالة النفسية التي اصابته . فالغزالي قد ذاق احوال الصوفية بعد ان حصل علومهم ، ثم ارتقى الى درجة المكاشفات ، والمشاهدات ، ولكنه لم يبلغ الدرجة التي بلغها « الحلاج » من الاتحاد ، والفناء ، ولم يصف درجات السلوك ، والوصول ، كما وصفها « ابن سينا » في كتاب « الاشارات » .

إن آراء الغزالي في انتقاد الفرق تدل على قوة تحليله ، ومحكم قياسه ، وصادق برهانه ، وسعة احاطته بمذاهب زمانه ؛ ولكنها تدل في الوقت نفسه على الميزان الذي وزن به الحق ، وانتقد به الفلسفة ، وجعل العقل غير كاشف للغطاء عن جميع المضلات . وهذا الميزان هو ميزان الكشف الباطني ، الذي تنجلي به العقائد الدينية ، ويحصل به الأمان ، ويعود اليقين معه الى النفس ؛ والغزالي لم يتكلم على الفلسفة الا ليبطلها ، ولم يبحث في العلوم الاخرى الا بالقياس الى الدين . فليس في « المنقذ من الضلال » شيء يدل على البحث المجرد ، والحقيقة النظرية ، لأن الحقيقة ، بصورة عامة ، تابعة عنده للعقائد الدينية ، والعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب . وهكذا كانت ثقة الغزالي بالعقل المحض قليلة ، وليس هو اول من رد على الفلاسفة ، بل قد رد قبله عليهم ، وعلى « المعتزلة » ، كثيرون غيره .

ولكن ليس في المناقشات التي حصلت بين المتكلمين والمعتزلة ما يضاهاى قوة الغزالي في الرد على الفلاسفة ، فظهرت حجته وضعف قول المنكرين ، ولم يقم في الشرق بعده من يستطيع أن يجي علم ما بعد الطبيعة ، كما أحيا هو نفسه علوم الدين .

وإذا كان الغزالي يطلب العلم بطريق الأوليات العقلية ويجرده من سلطان التقليد ثم يعود الى تقييده بسلطان الدين ، ويكفر الفلاسفة في علومهم ، فمرد ذلك إلى ما قد يتولد منها من آفات . فقد قال في زجر العامة عن الرياضيات : « يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فإنها ، وإن لم تتعلق بأمر الدين ، لكن لما كانت من مبادئ علومهم ، يسري اليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها الا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى »<sup>(١)</sup>

وهكذا ذهب الغزالي الى ان وراء سلطان العقل طورا آخر ، « تنفتح فيه عين اخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأمورا أخرى العقل معزول عنها »<sup>(٢)</sup> . وأصوب الطرق في نظره طريقة الصوفية ، لأن جميع حركاتهم ، وسكناتهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة « وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »<sup>(٣)</sup> .

ان انتقاد الغزالي للفرق مبني على هذه الموضوعات الاساسية ، وهي ان العقل عاجز عن الاحاطة بكنهه الحقائق الإلهية ، وان وراء طور العقل طورا آخر أساسه الحدس الديني يدرك به الانسان ما لا يدركه العقل ، قال في معرض الكلام على الفرق : « الحق لا يعدو هذه الاصناف الاربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع »<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك كما ترى إشارة بطرف خفي الى تحديد نطاق العقل وتضييق حدود المعرفة .

### ٣ - النبوة والاصلاح الديني

الانسان على الفطرة الاولى يجهل ما يحيط به من الموجودات ، ثم انه يطلع عليها بواسطة الادراك ؛ وقد تنوعت الادراكات بحسب اجناس الموجودات : ففقه الحس تدرك عالم المحسوسات ، وقوة التمييز تدرك أمورا زائدة على الحس ،

(١) المنقذ ص - ٨٠

(٢) المنقذ ص - ١١١

(٣) المنقذ ص - ١٠٦

(٤) المنقذ ص - ٦٦

والعقل يدرك الواجب والجائز والحوال . ووراء طور العقل قوة اخرى لإدراك الغيب وما سيكون في المستقبل . فهناك اربع مراتب للادراك : ادناها مدركات الحس ، واعلاها مدركات النبوة .

والبرهان على مدركات النبوة وجود معارف عند الانسان لا يمكن أن تتم له إلا بهذا النوع من الادراك ، كالطب والنجوم ، « فإن من يبحث عنها يعلم بالضرورة ، انها لا يدركان إلا بإلهام إلهي »<sup>(١)</sup> .

واذا نظرنا الى الانسان وجدنا معه نموذجاً من هذا الإدراك ، وهو النوم . فالنائم يدرك ما سيكون من الغيب ، ويرى ويسمع ، وبصره وسمعه في حال غفلة . فكما أن العقل طور ندرك به أنواعاً من المعقولات بعيدة عن الحس ، كذلك النبوة فهي من طور آخر يظهر فيه نور الغيب ولا يدركه العقل<sup>(٢)</sup> فالرؤيا ، كعلم الطب والنجوم ، تدل على ان في الانسان شيئاً من خواص النبوة ، وهي تقرب هذا الادراك من العقل ، وما عدا ذلك فإنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف<sup>(٣)</sup> .

والنبي لا يعرف إلا بأحواله ، وذلك اما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . وكما أن الانسان اذا عرف الطب أمكنه أن يعرف الاطباء بمشاهدة أحوالهم ، فكذلك اذا فهم معنى النبوة ، أمكنه أن يستدل بها على شخص معين انه نبي أم لا ، وذلك بمشاهدة أحواله ، وتجربة ما قاله في الف او الفين وآلاف من الأحوال ، حتى يحصل اليقين القوي والإيمان العلمي .

ولما كان الانسان قد خلق من نفس وبدن ، فإن البدن له صحة بها سعادته والقلب له صحة بها سلامته . إلا ان ادوية المبادات لا يدرك تأثيرها ببضاعة

(١) المنقذ : ص - ١٠٩ - ١١٢

(٢) المنقذ ص - ١١١ راجع ايضا ابن خلدون صليبا وميل .

(٣) المنقذ : ص - ١٠٩ - ١١٢

المقل، بل يجب فيها تقليد الأنبياء « فالأنبياء أطباء امراض القلوب »<sup>(١)</sup> والعبادات أدوية مختلفة في النوع والمقدار ، إلا أن الخلق قد أعمت الاهواء قلوبهم ، فلم يدركوا حقيقة النبوة ، بل شاع بينهم فتور الاعتقاد ، فبحث الغزالي عن اسباب فتور الخلق وضعف ايمانهم فوجدها اربعة : ١ - الفلسفة ٢ - التصوف ٣ - التعليم ٤ - الموسمون بالعلم فيما بين الناس . فند هذه الاسباب واحداً واحداً بأسلوب يشبه أسلوب « باسكال » في رده على الدراطقة<sup>(٢)</sup> ، وأنهى باللائمة على الفلاسفة الذين يسرون غير ما يعلنون ، فيخالفون الشريعة بقولهم ، ويعظمونها بلسانهم وقد عظم خطر أعداء الدين واستفحل امرهم ، حتى صار لا يمكن ملازمة العزلة وتركهم يخدعون الناس بأقاويلهم . ووجد الغزالي ان فضحهم أسير عنده من شربة ماء ، فكيف يلزم العزلة « وقد عم الداء ومرض الاطباء » ، وقد وعد الله باحياء دينه على رأس كل مئة ! فتحركت في نفسه عوامل الرجوع إلى نشر العلم ، واصابته بأزمة نفسية ثانية اخرجته من عزلته ، فسافر الى نيسابور ، وانصرف إلى إصلاح نفسه وإصلاح غيره ، كأنه رسول بعث لحياء الدين ، فعالج الباطنية بـ « القسطاس المستقيم » ، ومرض الاباحة بـ « كيمياء السعادة » وعالج الذين فسد إيمانهم بالفلسفة حتى انكروا النبوة بأن اثبت لهم إمكانها ووجودها .

\* \* \*

هذا ما اشتمل عليه كتاب المنقذ من الضلال من شك وتوقد والهام ويقين . فهو قصة حياة فكرية مضطربة ، وصورة نفس مفعمة بالإيمان ميالة الى الحق ،

(١) المنقذ من - ١١٦

(٢) المنقذ من - ١١٧ راجع ايضا : Pascal . Pensées

باحثة عن اليقين ، لا بل هو قصة ألم نفسي ونزاع عميق بين العقل والالهام ، كتبه الغزالي بأسلوب سهل ، عليه طابع الصدق والأمانة والبساطة والنقاء ، حتى جاء أوحده نوعه في الثقافة الاسلامية ، وقليل الشبيه في الأدب العالمي بأسلوبه ومنحاه ووحدة غرضه واستقامة منهجه .

## آثار الغزالي

### ١ - المطبوعة

#### التصوف

- ١ = آداب الصوفية : طبع في مصر .
  - ٢ = الادب في الدين : طبع ضمن مجموع في القاهرة ١٣٤٣ .
  - ٣ = الاربعين في أصول الدين : وهو القسم الثالث من جواهر القرآن طبع في مكة ١٣٠٢ .
  - ٤ = الاملاء عن اشكال الاحياء : رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الاحياء . طبع بهامش « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي المرتضى كما طبع في فاس ١٣٠٢ .
  - ٥ = إحياء علوم الدين : وهو من أجل كتب المواعظ وأعظمها طبع في مصر غير مرة ، وفي لكتناو ١٢٨١ ،
- وبه حواش وتقييدات ؛ ومنه نسخ خطية في مكاتب فيينا وبرلين وليدن والمتحف البريطاني واوكسفورد ؛ وعليه شروح عديدة منها : « إتحاف السادة المتقين » طبع في فاس ١٣٠٢ هـ في ١ - مجلد أ ، وفي القاهرة ١٣١١ في عشرة مجلدات . ومنها : « منهاج القاصدين » لابن الجوزي ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وأخرى في مكتبة باريس . ومنها : « روح الاحياء » لابن يونس ، ومنه نسخة في مكتبة أو كسفورد .
- وقد اختصره السيد جمال الدين القاسمي الدمشقي وسماه « موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين » طبع ثلاث مرات في القاهرة .

## الغزالي

- ٦ = أيها الولد : كتبه لبعض أصدقائه نصحاً له ، وذكر نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب طبع مع ترجمة ألمانية في فيينا ١٨٣٨ و ١٨٤٢ باعتناء « هامر برغستال » كما طبع في مصر وكذلك في بيروت سنة ١٩٥١ مع ترجمة فرنسية للدكتور صباغ وترجمة انكليزية لجورج شير وترجمة اسبانية لاسطفان لانور ( اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية ) ومنه نسخ خطية متفرقة في مكاتب اوروبا وفي دار الكتب المصرية .
- ٧ = بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية : طبع في القاهرة عدة مرات . ومنه نسخ خطية في برلين ، وغوطا ، ومونيخ ، وباريس ولندره ، وأوكسفورد ، والجزائر وليننغراد . وله مختصر أيضاً . وقد شرحه الشيخ محمد نووي الجاوي بكتابه المسمى « مراقبي العبودية »
- ٨ = جواهر القرآن ودرره : طبع في مكة وبمبي ومصر ، ومنه نسخة في لندن والمتحف البريطاني وليننغراد ودار الكتب المصرية .
- ٩ = الحكمة في مخلوقات الله طبع غير مرة في مصر . ومنه مخطوط في باريز رقم ٢٣١٠ .
- ١٠ = خلاصة التصانيف : ألفه باللغة الفارسية . وترجمه محمد أمين الكردي المتوفي سنة ١٢٣٢ ، طبع في مصر ١٣٢٧ .
- ١١ = الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة : طبع في جنيف ١٨٧٣ م بعناية ( غوتيه ) وفي القاهرة غير مرة ، وفي ليبسيك ١٩٢٥ م .
- ١٢ = الرسالة اللدنية : طبعت مع رسالة « كنه ما لا بد منه للمريد » لابن عربي . وطبعت أيضاً مع رسائل الإمام حجة الاسلام الغزالي القاهرة ١٣٥٣ هـ ( ١٩٣٤ م ) .
- ١٣ = الرسالة الوعظية : طبعت ضمن مجموع في القاهرة ١٣٤٣ هـ
- ١٤ = فاتحة العلوم : وهو مشتمل على فصلين ، ومنه نسخة في مكتبة برلين وأخرى في مكتبة باريس طبع في مصر ١٣٢٢ هـ
- ١٥ = القواعد العشر : طبع في مصر غير مرة .

١٦ = الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين : طبع بهامش « تنبيه المغترين » للشعراني .

١٧ = المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين ( من أحياء علوم الدين ) لخص فيه الأحياء ، طبع بمصر ١٣٤١ .

١٨ = مشكاة الأنوار : فيه بحث في الفلسفة اليونانية من ناحية التصوف ، طبع في مصر ضمن مجموع عام ١٣٤٣ ؛ ومنه نسخ خطية في دار الكتب المصرية ، وسائر المكاتب الدولية في أوروبا ، وله ترجمة عبرانية .

١٩ = مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب : مختصر من المكاشفة الكبرى للغزالي ، اختصار بعض الأفاضل ، طبع في مصر غير مرة .

٢٠ = منهاج العابدين إلى الجنة قيل أنه آخر تأليفه ، طبع في مصر غير مرة . وعلى هامشه كتاب « بداية الهداية » ، ومنه نسخة خطية في برلين وباريس وليدن والمتحف البريطاني والجزائر ، وله تلخيص ينسب إلى « بلاطونسي » من أهل القرن التاسع الهجري . وهذا له شرح ترجم إلى

التركية . قال ابن عربي في محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ص ١٥٩ أن هذا الكتاب منحول وأنه لا يبي الحسن على السفر السبتي . انظر رقم ٥ من الكتب المنحولة .

٢١ = ميزان العمل : مختصر في علم النفس وطلب السعادة التي لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وبيان شرف الفعل والعلم والتعليم . طبع في ليبسيك ١٨٣٩ وفي مصر ١٣٢٨ . كما ترجمه الدكتور حكمة هاشم إلى اللغة الفرنسية بعنوان Critère de l'Action بباريز ١٩٤٥ .

٢٢ = معراج السالكين ، طبع في مصر في مجموعة اسمها فرائد الآلاء من رسائل الغزالي مع منهاج العارفين وروضة الطالبين ومنه نسخة خطية في مكتبة باريز رقم ١٣٣١ .

#### العقائد

٢٣ = الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية : راجع المضمون به على غير أهله .

٢٤ = الاقتصاد في الاعتقاد : طبع في مصر غير مرة .

٢٥ = إجماع العوام عن علم الكلام : طبع في مصر غير مرة ، وفي الهند ، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوروبا .

٢٦ = الرسالة القديسة في قواعد العقائد : طبع في الاسكندرية (دون تاريخ) .

٢٧ = عقيدة أهل السنة : طبع في الاسكندرية ( دون تاريخ ) ومنه نسخ خطية في برلين واوكسفورد ولندره

٢٨ = فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية : ويسمى المستظهوري ؛ نشر منه « كولدتسر » قسماً كبيراً وقدم له وبحث فيه بحثاً طويلاً باللغة الألمانية ، طبع في ليدن ١٩١٦ مع المتن العربي ومنه نسخة خطية ناقصة في مكتبة أحمد عبيد بدمشق .

٢٩ = فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : : طبع في مصر ١٣٤٣ ضمن مجموع . ومنه نسخ خطية في برلين والقاهرة .

٣٠ = القسطاس المستقيم : طبع في مصر غير مرة ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخة في

برلين وأخرى في الاسكندرية

٣١ = كيمياء السعادة : طبع غير مرة في مصر ، ومنه نسخة فارسية في مكتبة برلين ، وأجزاء متفرقة في سائر المكاتب ، فضلاً عن النسخة العربية .

المستظهوري : راجع فضائح الباطنية .

٣٢ = المضمون به على غير أهله ويسمى الأجوبة الغزالية . طبع في مصر غير مرة وفي الهند ، انظر رقم ٥ من الكتب المنحولة .

٣٣ = المقصد الاسنى في شرح اساء الله الحسنى : طبع في مصر ١٣٣٤ .

٣٤ = قواعد العقائد ، مطبوع ذكره السبكي في سياق رؤيا اوردها في طبقات الشافعية ، وهو كتاب قواعد العقائد المذكور في الجزء الاول من الأحياء .

#### الفقه والاصول

٣٥ = أسرار الحج : في الفقه الشافعي ، طبع في مصر (دون تاريخ)



٣٦ = المستصفى في علم الاصول ،  
 طبع في القاهرة غير مرة ، ومنه نسخ  
 خطية في دار الكتب المصرية ، وفي  
 مكتبة غوطا .

٣٧ = الوجيز في الفروع : أخذه  
 من البسيط والوسيط ، وزاد فيه امورا  
 وهو كتاب جليل في المذهب الشافعي  
 ( مطبعة شركة الكتب ١٣١٨ ج ٢ )  
 ومنه نسخة خطية في دار الكتب  
 المصرية ، وله شروح عديدة لم تطبع .

### الفلسفة والمنطق

٣٨ = تهاافت الفلاسفة : طبع في  
 مصر غير مرة ، وفي بمبي ( الهند )  
 ١٣٠٤ ، رد فيه على الفلاسفة  
 وقد ترجم الى العبرانية واللاتينية  
 وطبع في بيروت طبعة نقدية اصدرها  
 الاب اليسوعي بويج سنة ١٩٢٧ .

٣٩ = رسالة الطير : طبع ضمن  
 مجموع في القاهرة ١٣٤٣ هـ

٤٠ = محك النظر في المنطق :  
 طبع في مصر ( دون تاريخ ) .

٤١ = مشكاة الانوار : طبع في  
 مصر ضمن مجموع ١٣٤٣ ، انظر رقم ٢٨

٤٢ = معارج القدس في مدارج  
 معرفة النفس : طبع في القاهرة ١٣٤٦ هـ  
 ١٩٢٧ م ومنه نسخة خطية في دار  
 الكتب المصرية ٦٣٠ فلسفة كتبت في  
 سنة ١٢٠٥ ، راجع فهرس المخطوطات  
 المصورة لجامعة الدول العربية ، رقم  
 ٣٥٣ فلسفة ص ٢٣٥ .

٤٣ = معيار العلم في المنطق :  
 طبع في مصر ١٣٣٩ .

٤٤ = مقاصد الفلاسفة : في  
 المنطق والحكمة الإلهية والحكمة

الطبيعية ، طبع في لندن ١٨٨٨ م مع  
 شروح ، وفي القاهرة غير مرة ، وله

ترجمة لاتينية طبعت في البندقية ١٥٠٦ م  
 ٤٥ = المنقذ من الضلال : ( وهو

هذا الكتاب ) منه نسخ خطية في  
 مكاتب برلين ولندن وباريس

والاسكوريال ودار الكتب المصرية  
 وتكلم عنه مطولا « شمولدرز » في

كتابه عن المدارس الفلسفية عند العرب  
 المطبوع ١٨٤٢ م بالفرنسية .

### ٢ - المخطوطات

#### التصوف

٤٦ = جامع الحقائق بتجربة

العلائق : منه نسخة خطية في مكتبة  
 أوبسال .

٤٧ = زهد الفاتح : منه نسخة  
 خطية في المتحف البريطاني .

٤٨ = مدخل السلوك الى منازل  
 الملوك : بحث في حياة الصوفي ومنه  
 نسخة في الاسكوريال .

٤٩ = معراج السالكين ، منه  
 نسخة في مكتبة باريز .

٥٠ = نور الشمعة في بيان ظهر  
 الجملة : منه نسخة خطية في لندن .

### الفقه والأصول

٥١ = البسيط في الفروع على  
 نهاية المطلب لإمام الحرمين : منه

نسخة خطية في مكتبة الاسكوريال  
 واخري في دار الكتب المصرية .

٥٢ = غاية الغور في مسائل الدور :  
 منه نسخة خطية في مكتبة المتحف

البريطاني .

٥٣ = المنحول في الاصول :  
 منه نسخة خطية في دار الكتب

المصرية .

٥٤ = الوسيط المحيط باقطار  
 البسيط : منه نسخ خطية في مكتبتني

مونيخ وأوكسفورد وفي دار الكتب  
 المصرية .

### الفلسفة

٥٥ = حقائق العلوم لأهل  
 الفهوم : منه نسخة في مكتبة باريس .

وقد ذكر الدكتور حكمت هاشم  
 في حاشيته على هذا الثبوت ان هذه

الرسالة هي الرسالة اللدنية المطبوعة في  
 القاهرة ضمن مجموع الجواهر الغوالي من

رسائل الامام الغزالي .

٥٦ = المعارف العقلية والحكمة  
 الإلهية : منه نسخ في مكتبات باريس

واوكسفورد وامبروزياتا . حققه  
 الدكتور حكمة هاشم وهو الآن في

سبيل نشره .

٥٧ = فضائل القرآن : منه  
 نسخة خطية في دار الكتب المصرية .

### ٣ - المفقودة

أ

٥٨ = آداب الكسب والمعاش

٥٩ = الاجوبة المسكتة عن  
 الاسئلة المبهمة

٦٠ = أخلاق الابرار والنجاحة من  
 الاشرار .

والنشور .

٧٨ = بيان القولين للشافعي

ت

٧٩ = التأويلات

٨٠ = التجريد في التوحيد

٨١ = تحصن المآخذ

٨٢ = تحصين الادلة

٨٣ = تحفة الملوك

٨٤ = تدليس إبليس

٨٥ = تعلية في الفروع

٨٦ = تفسير الآية التاسعة

والعشرين من سورة يونس .

٨٧ = تفسير القرآن

٨٨ = تقسيم الاوقات والادوار

٨٩ = تنبيه الغافلين

٩٠ = التوحيد وإثبات

الصفات .

ج

٩١ = الجدول المرقوم بالدرج

( ذكره في المنقذ ) أنظر ١٠٩

٩٢ = جنة الاسماء

٩٣ = الجوابات المرقومة

٩٤ = الجواهر والدرر في

التصوف .

٦١ = إرشاد العباد

٦٢ = أرواح الاشباح

٦٣ = أساس القياس

٦٤ = الأدلة والأجوبة

٦٥ = أسرار الانوار الإلهية في

الآيات المتلوة القرآنية .

٦٦ = أسرار اتباع السنة

٦٧ = أسرار حروف الكلمات

٦٨ = أسرار المعاملات

٦٩ = الإشارة المعنوية الى الاسرار

الجرفية .

٧٠ = إشراق المآخذ

٧١ = الامثال لمشية الله تعالى

والعصيان لها .

٧٢ = الانتصار على الامام

الزناقي .

٧٣ = الانتصار لما في الاجناس من

الاسرار .

٧٤ = الأنيس في الوحيدة

٧٥ = إيضاح التعريف في فضل

العلم الشريف .

ب

٧٦ = بدائع الصنيع

٧٧ = البدور في اخبار البعث

ح

٩٥ = حجة الحق ( ذكره في

المنقذ ) .

٩٦ = الحدود

٩٧ = الحصن والحصين

٩٨ = حصن المآخذ

٩٩ = الحقائق في الدار الفائتة

١٠٠ = حقوق أخوة الاسلام

١٠١ = حقيقة الروح

١٠٢ = حقيقة القولين

١٠٣ = حل الرموز

خ

١٠٤ = الخاتم في الطلسم

١٠٥ = الخلاصة في الفقه

١٠٦ = خلاصة الوسائل الى علم

المسائل ( لخص فيه مختصر المزني وزاد

عليه بعض مسائل ) .

١٠٧ = خواص الحروف

١٠٨ = خواص القرآن

د

١٠٩ = الدرج المرقوم بالجدول

انظر ٩١

١١٠ = الدر المنظوم في السر

المكتوم ( ويعرف بخاتم الغزالي

وبوق زحل )

١١١ = دقائق الاخبار

ذ

١١٢ = ذكر العالمين

١١٣ = الذهب الإبريز في

خواص الكتاب العزيز

ر

١٢٤ = الرد الجليل على من غير

الإنجيل انظر رقم ١٧٧

١١٥ = الرد على من طغى

١١٦ = رسالة آداب الصلاة

١١٧ = د الاقطاب

١١٨ = د التوحيد

١١٩ = رسالة الجبر المتوسط

١٢٠ = د الذكر

١٢١ = د العشق

١٢٢ = الرسالة الغزالية في اللغة

١٢٣ = رسالة في غتوح القرآن

( رسالة الفها الى أبي الفتح الدميمي )

١٢٤ = رسالة في آفات المال

وفوائده

١٢٥ = رسالة في الأحرف

- ١٢٦ = « في الثبات على الصراط »  
 ١٢٧ = « في الحدود »  
 ١٢٨ = « في حقيقة الدنيا »  
 ١٢٩ = « في حماة أهل الإباحة »  
 موجودة في الفارسية طبعها ودرسها  
 ( اوتوبرتزل ) سنة ١٩٣٣  
 ١٣٠ = « في رجوع أسماء الله تعالى إلى ذات واحدة على رأي الفلاسفة والمعتزلة »  
 ١٣١ = رسالة في الفرق بين النطق والكلام  
 ١٣٢ = « في فضل القرآن وتلاوته »  
 ١٣٣ = « في قوله « ص » « أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »  
 ١٣٤ = « في معرفة الله تعالى »  
 ١٣٥ = « فيما يجب على كل مسلم »  
 ١٣٦ = « في معنى الرياضة »  
 ١٣٧ = في الموت  
 ز  
 ١٣٨ = زاد الآخرة  
 ١٣٩ = الزهد الفاتح

## س

- ١٤٠ = سير الملوك ( فارسي )  
 ١٤١ = السر المصون في العلم المكنون .

## ش

- ١٤٢ = شجرة اليقين  
 ١٤٣ = شرح الارشاد  
 ١٤٤ = شرح الصدر  
 ١٤٥ = شرح نخبة الاسماء  
 ١٤٦ = شفاء الغليل في بيان مسائل التعليل ( في اصول الفقه )  
 ١٤٧ = شفاء الغليل فيما وقع في التوراة والانجيل من التحريف والتبديل

## ع

- ١٤٨ = كتاب العلق  
 ١٤٩ = العلم  
 ١٥٠ = عجائب صنع الله  
 ١٥١ = عدة العباد ليوم المعاد  
 ١٥٢ = العقيدة ( المعروفة بعقيدة الغزالي )  
 ١٥٣ = عقيدة الصباح  
 ١٥٤ = عنقود المختصر

١٥٥ = العنوان

١٥٦ = عين العلم

## غ

- ١٥٧ = غاية العلوم وأسرارها  
 ١٥٨ = الغاية القصوى في فروع الشافعية

١٥٩ = غاية الوصول في علم الاصول

- ١٦٠ = الغاية والنهاية ( وهو مجموع قصائد في مدح الرسول « ص » )  
 ١٦١ = الغور في الدور ( صنفه بعد غاية الغور ، رجع فيه عن قوله السابق ) . أنظر ٥٢

## ف

- ١٦٢ = الفتاوي مشتملة على ١٩٠ مسألة غير مرتبة .  
 ١٦٣ = الفتوح الرباني في نفس الروح الانساني  
 ١٦٤ = فرزندانمه ( فارسي )  
 ١٦٥ = الفرق بين الصالح وغير الصالح  
 ١٦٦ = فضائح الاباحية  
 ١٦٧ = فضائل القرآن

- ١٦٨ = فضائل الأنام ( فارسي )  
 ١٦٩ = الفكرة والعبرة  
 ١٧٠ = الفكرة والزهد  
 ١٧١ = الفوائد المتفرقة  
 ١٧٢ = فوائح السور  
 ١٧٣ = الفوز في الكيمياء

## ق

- ١٧٤ = قانون الرسول  
 ١٧٥ = القانون الكلي  
 ١٧٦ = القربة الى الله عز وجل  
 ١٧٧ = القول جميل في الرد على من غير الانجيل انظر ١١٤

## ك

- ١٧٨ = الكافي في العقد الصافي  
 ١٧٩ = كشف الاسرار في فضائل الاعمال  
 ١٨٠ = كلمات تقرير على المقامات ( فارسي )  
 ١٨١ = كنز العدة  
 ١٨٢ = كنز القوم والسر المكتوم

## ل

- ١٨٣ = الباب في التصوف

## م

- ١٨٤ = المأخذ في الخلاف بين الحنفية  
١٨٥ = ما لا بد منه ( في الطهارة والصلاة والصوم  
١٨٦ = المبادئ والغايات في أسرار الحروف  
١٨٧ = المبادئ والغايات في قتل المسلم بالذمي  
١٨٨ = مذهب أهل السلف  
١٨٩ = مراقي الزلعي  
١٩٠ = مرشد الطالبين  
١٩١ = المسائل البغدادية  
٢٩١ = مسلم السلاطين  
٩٣١ = المصالح والمفاسد  
١٩٤ = المصباح في العقائد  
١٩٥ = مصطفيات الانوار .  
١٩٦ = معتاد العلم  
١٩٧ = المعتقد  
١٩٨ = المعراج  
١٩٩ = معيار النظر  
٢٠٠ = مغاليط المغرورين  
٢٠١ = مفصل الخلاف  
٢٠٢ = المقاصد
- ٢٠٣ = مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والامراء  
٢٠٤ = مقصد الخلاف في علم الكلام  
٢٠٥ = المكاتبات  
٢٠٦ = المكتونات  
٢٠٧ = المكنون في الاصول  
٢٠٨ = المنادي والصامت  
٢٠٩ = المنازل السائرة  
٢١٠ = مناهج العارفين لعله منهاج العارفين المطبوع في فرائد الآلي من رسائل الغزالي مع معراج السالكين وروضة الطالبين ، القاهرة ١٣٤٤  
٢١١ = المنتحل في علم الجدل  
٢١٢ = منشأ الرسالة في أحكام الزينغ والضلالة  
٢١٣ = منهاج الرشاد  
٢١٤ = منهاج الأعلى  
٢١٥ = منهاج المتعلم  
٢١٦ = المنهج الأعلى  
٢١٧ = المواعظ في الاحاديث القدسية .  
٢١٨ موامم الباطنية

## ن

- ٢١٩ = نصائح الملوك (فارسي)  
هو عين رسالة الغزالي إلى ملكشاه في العقائد انظر رقم ١ من الكتب المنحولة  
٢٢٠ = نصيحة الملوك  
٢٢١ = نعمة الفقير  
٢٢٢ = نهاية الاقدام في الفقه  
٢٢٣ = النية والاخلاص

## و

- ٢٢٤ = الوسائل في الفروع  
تقليه . - استقيننا هذه الجريدة من المصادر التالية : بروكلمان ( G. A. Sup. ( I. I. 744 ويرد الى الجزء الأول ٤٢١ ، طبقات السبكي ، طبقات الشافعية للحزامي ، عقود الجواهر فيمن له خمسون مصنفاً فئة فاكتر لجميل العظم ، معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ، المجلد الخامس عشر من الهلال ، الاخلاق عند الغزالي لزكي مبارك .

## ٣ . - المنهورة

- ١ - التبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك . طبع في القاهرة غير مرة . وقد ترجمه عن الفارسية الى العربية - فيما يزعم الذين دسوه على الغزالي - أحد تلامذة المؤلف ويسمى أيضاً « عمدة المحققين وبرهان اليقين » .  
٢ - تحسين الظنون .  
٣ - سر العالمين وكشف ما في الدارين ، يبحث في نظام الحكومات منسوب له ، والصواب أنه لأحد الباطنية طبع في الهند ومصر ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية .  
٤ - السر المكتوم في أسرار النجوم .

٥ - المضمون به على غير أهله .  
(انظر رقم ٣٢) ، ذهب السبكي ، وابن عربي وابن الصلاح والزبيدي إلى أن هذا الكتاب اشتمل على القول بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات . وتابعهم الدكتور علي العناني وغيره من علماء العصر على ابعاد هذا الكتاب من جريدة كتب الغزالي . قال ابن عربي في محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار ج ١ ، ص ١٥٩ : « كان هذا الشيخ المسفر (الكلام على أبي الحسن علي المسفر ) جليل القدر ، حكيمًا عارفًا غامضًا في الناس ، محمود الذكر رأيت به سبته ، له تصانيف منها منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي ، وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ . وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضًا وتسميه الناس المضمون الصغير . » ويقول ابن رشد في منهاج الادلة ص ٧٢ ان الغزالي ذكر المضمون به في جواهر القرآن ، ولكننا لم نجد في هذا الكتاب ذكراً للمضمون به ،

بل وجدنا فيه إشارة غامضة إلى كتب يرى الغزالي أن لا يظهر مافيه (راجع جواهر القرآن ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٩) ولما كان كتاب المضمون به على غير أهله مشتملاً على مسألة في النفخ والتسوية ، وكان كتاب النفخ والتسوية معروفاً باسم المضمون الصغير ، وهو للشيخ المسفر كان من المحتمل أن يكون المضمون الذي بين ايدينا مؤلفاً من قسمين أحدهما للغزالي والآخر (وهو المسألة الأولى في النفخ والتسوية) مدسوس عليه . والدليل على ذلك أن هذه المسألة قد اشتملت على القول بعدم تنامي الزمان ، أما المسائل الأخرى التي اشتمل عليها كتاب المضمون به على غير أهله فليس فيها ما يخالف آراء الغزالي .

٦ - كتاب النفخ والتسوية ، وهو للشيخ المسفر أبي الحسن علي السبكي (راجع ابن عربي ، محاضرة الأسرار ومسامرة الأخيار ، جزء ١ ص ١٥٩) .

## أهم المصادر عن الغزالي

### ١ - حياته ومؤلفاته

١ - المنقذ من الضلال .

٢ - السيد المرتضى ، مقدمة كتاب « الاتحاف » ج ١ ص ٢ - ٥٣ ، والمادة نفسها الموجودة في الاتحاف موجودة في طبقات السبكي ج ٤ ، ص ١٠١ - ١٨٢ ، وفي المجلد الثاني من المنتخبات التي انتخبها ( مبرن ) Mebrén في :

Translation III Congress of orientalis .

٣ - د . ب . مكدونالد (D. B. Macdonald) The Life of Al. Gha - zali with especial reference to his religious experiences and opinion.

انظر مجلة ( J. A. O. S. ) ١٨٩٩ ، المجلد العشرون ص ٧١ - ١٣٢ .

انظر أيضاً الفصل الرابع من Development of Muslim Theology

نيويورك - ١٩٠٣ .

٤ - ر . غوش ( R. Gosche ) : Über Gazzalis Leben und Werke : 1859 ( في مباحث الجمع العلمي في برلين ) .

٥ - م . آزين - بالاسيوس ( M. Asin - Palacios ) : Al Gazel - Dogmatica, moral, ascética : مرقسطة ١٩٠١ .

٦ - كارّا دو فو ( Carra de Vaux ) : Gazali باريز ، ١٩٠٢ .

راجع أيضاً Traduction du Tahafot d'Al Gazali, München 1899, 1900 .

٧ - غولدتسيهر ( Goldziher ) : Vorlesungen über den Islam : المقدمة ، وخصوصاً ص ١١٧ وما بعدها.

٨ - ه. فريك : Ghazàlis Selbstbiographie ( H. Frick ) : Ein Vergleich mit Augustins Konfessionen. Giessen 1919.

### ١ - منزلة الغزالي في تاريخ الفلسفة

١ - ت. ج. دي بوير ( T. J. de Boer ) : Geschichte der Philosophie im Islam : Stuttgart. 1901. المقدمة وص ١٣٨ - ١٥٠ .  
٢ - غولدتسيهر ( Goldziher ) : Kultur der Gegenwart : مجلد ١ ج١ ص ٦٢ وما بعدها .

### ٢ - منطق الغزالي

١ - برانتل ( Prantl ) : Geschichte der Logik : ج ٢ ص ٣٦١ وما بعدها.

### ٣ - مركزه في التاريخ

١ - نيكلسون ( Nicholson ) : A Literary History of the Arabs : المقدمة ، وص ٣٣٨ وما بعدها .

٢ - براون ( Brown ) : A Literary History of Persia : المقدمة .

٣ - دائرة المعارف اليهودية : ج ٥ ، ص ٦٤٩ وما بعدها .

٤ - ماكس هورتن ( M. Horten ) : ملاحظات خاصة في :

(بون ١٩١٢) Die philos. Systeme d. spec. Theologen im Islam.

٥ - ماكس هورتن ( M. Horten ) : ملاحظات خاصة في :

Die Hauptlehren des Averroes nach seiner Schrift die Widerlegung des Gazali . ٣٢٣ - ٣٢٨ .

### ٤ - نقد الغزالي

١ - ( م. آزين - بالاسيوس ( M. Asin - Palacios ) : Un faqih Siciliano, contradictor de Al Gazali

في : Centenario de Michele Amari : ج ٢ ، ص ٢١٦ - ٢٤١

### ٥ - مصادر عامة ودراسات

١ - الدكتور زكي مبارك الأخلاق عند الغزالي.

٢ - عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي ، ص ٤٣ - ٥١ .

٣ - محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص ٦٧ - ٧٨ .

٤ - دائرة المعارف الاسلامية : في مادة الغزالي .

٥ - ج. اوبرمان ( J. Obermann ) : Der philosophische und religiose Subjectivismus Ghazàlis. Leibzig 1921.

انظر ملاحظات (بويج) ( Bouges ) عليه في رسالته المسماة Algazaliana

ص ٥٠٤ - ٥٤٤ وتحليله في مجلة العالم الاسلامي بقلم (ماسينيون) ص ١٥٩ من الجزء ٥٠ .

٦ - ماكس هورتن ( M. Horten ) : D. Philos d. Islam .

ص ٢٢٧ - ٢٣٤ .

٧ - آزين بالاسيوس ( Melanges de ) : La mystique d'Al-Ghazali ( la Faculté Orientale de Beyrouth ). 1914. VII 67-104. (Asin-Palacios)

٨ - آزين بالاسيوس ( ايضاً ) :

Une introduction musulmane à la vie spirituelle. Revue d'Ascétique et de mystique, IV.

٩ - آزين بالاسيوس ( ايضاً ) :

La mystique d'Al Gazali : Semaine d'Elhnologie religieuse Paris 1914, 441 - 461.

١٠ - الدكتور حكمة هائم ( Hikmat Hachem ) : La critique du Pèripatétisme et du Néo Platonisme chez Algazal.

وهو اطروحته للدكتوراه ١٩٤٦ ، مخطوط .

- ١١ - ل. غوثيه ( L. Gauthier ) La philosophie musulmane : 1900.
- ١٢ - غولد تسيهر Streitschrift des Gazali gegen die Batinijja - Sekte - Leiden 1916. ( Goldziher )
- ١٣ - م. بويج Notes sur les philosophes : ( M. Bouyges ) arabes connus des latins au Moyen Age. IV. C'est du Maqâcid que l'on a extrait les Al gazalis errores. Beyrouth 1921.
- انظر ايضا Algazaliana, 1922 - Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth. VIII.
- ١٤ - آ. ج. فنزينك ( A. J. Wensinck ) La pensée de Ghazali, : Paris 1940.

١٥ - كريم عزقول : « العقل في الاسلام »

مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٤٦ .

١٦ - احمد فريد رفاعي : « الغزالي »

في مجلدين وثالث خصص بالاختارات ، مطبوعات دار المأمون ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٦ م و ١٣٥٥ هـ .

١٧ - كارادوفو ( Cara de Vaux )

Les penseurs de l'Islam. Paris. Geuthner.

١٨ - دي بور ( ت. ج. ) ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، القاهرة ١٩٣٨ .

١٩ - البقري ( ابو المطا ) ، اعترافات الغزالي ، القاهرة ١٩٤٣ .

٢٠ - مدكور ( ابراهيم ) ، في الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٧ .

## ٢ - طبعات المنقذ من الضلال

١ - باريز : ١٨٤٢ م ، شمolders بالعربية ( في ٦٤ صفحة ) .

٢ - الاستانة : ١٢٨٧ هـ .

٣ - الاستانة : ( مطبعة الاعلام ) ١٣٠٣ هـ .

- ٤ - مصر : ١٣٠٣ هـ .
- ٥ - مصر : ( المطبعة الميمنية ) ١٣٠٩ هـ .
- ٦ - بمبائي : ١٨٩١ م .
- ٧ - مصر : ( المطبعة الازهرية ) ١٣١٦ هـ على هامش الانسان الكامل .
- ٨ - دمشق : ( مطبعة ابن زيدون ) ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ .
- ٩ - القاهرة : احمد فريد رفاعي في الجزء ٣ من كتابه الغزالي .

## ٣ - ترجماته المنقذ من الضلال

١ - شمolders ( Schmolders ) في كتابه :

Essai sur les écoles philosophiques chez les Arabes et notamment sur la doctrine d'Agazzali.

( باريس ، ١٨٤٢ ) Paris 1812

٢ - باربييه دي مينار ( Barbier de Meynard ) :

المجلة الآسيوية ، كانون الثاني ١٨٧٧ ( Journal Asiatique, Janvier, 1877 )

٣ - و. م. وات ( W. M. Watt ) The Faith and Practice of -

Al - Ghazali - London 1953.

٤ - فريد جابر

Al-Munqid min adalal ( Ereur et délivrance ( Farid Jabr ) Beyrouth, 1959 ).

من مطبوعات اللجنة الدولية لترجمة الروائع .

٥ - للمنقذ تحليل مفصل لكنه غير تام بقلم M. Pallia ظهر سنة ١٨٣٧ في

الصفحات ١٥٥ - ١٩٣ من Mémoires de l'Académie Royale des Sciences morales et Politiques. t, I ; Savants étrangers.

## ملحظة

قوبلت هذه الطبعة على نسختين خطيتين : الأولى للعالم الجليل الشيخ محمد الطنطاوي، والثانية للأستاذ أحمد عبيد ( انتقلت هذه النسخة الأخيرة الى المكتبة الظاهرية وسجلت فيها برقم ٧٦٢١ عام ) .

اما نسخة الشيخ محمد الطنطاوي فهي ضمن مجموع أول أقسامه « المنقذ » يليه « ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد » للانصاري، « ورسالة صغيرة في الطب » للسنوسي، « وحي بن يقظان » لابن طفيل. والمجموع كله بخطه رحمه الله . ويبلغ عرض المکتوب من صفحة المجموع ١١ سم ، وطوله ١٧,٥ سم ويبلغ عدد أوراق المنقذ ١٥ ورقة، في كل صفحة ٢٧ سطراً . ولقد كتب المنقذ عام ١٢٨٥، أي قبل صدور طبعة الاستانة بعامين .

واما نسخة الأستاذ أحمد عبيد التي انتقلت الى المكتبة الظاهرية فهي ضمن مجموع اول اقسامه « المنقذ من الضلال » يليه كتاب « مشكاة الانوار » للغزالي ، وكتاب « التلويحات في تفسير الله نور السموات » للعضد ، وكتاب « حلية الابدال » للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، وكتاب « القسطاس المستقيم » للغزالي، وكتاب « برهان العلوم » له ايضاً، وكتاب « الجام العوام عن علم الكلام » له ايضاً، ورسالة في شرح أبيات للامام علي بن أبي طالب للغزالي ايضاً مع ترجمة هذه الرسالة الأخيرة الى اللغة التركية. ويبلغ عرض المکتوب من المنقذ ٩,٥ سم، وطوله ١٦,٥ سم، ويبلغ عدد اوراقه ١٦ ورقة في كل صفحة ٢٣ سطراً. والنسخة حديثة كتبت بالقلم الفارسي، وعليها تعليقات مختصرة باللغة العربية والتركية .

وأما ما أشير اليه في هذا الكتاب بين هلالين ( ... ) فيفيد الزيادات الموجودة في النسخ المطبوعة، وما اشير اليه بين معقوفتين [ ... ] فيدل على الزيادات الموجودة في نسخة الطنطاوي، وما اشير اليه بـ < ... > فيدل على الزيادات الموجودة في نسخة عبيد، وحرف (ع) في الحواشي يرمز الى النسخ المطبوعة، كما أن حرف (ط) يرمز الى نسخة الطنطاوي، وحرف (د) الى نسخة احمد عبيد .

\* \* \*



# المنفذ من الضلال

والموصل إلى ذي العزة والمجد

لمحة الإسلام « الفزالي »

الحمد لله الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد ( المصطفى ) صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد <sup>(١)</sup> سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أثبت إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين إضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع <sup>(٢)</sup> الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام <sup>(٣)</sup> ، وما اجتويته <sup>(٤)</sup> ثانياً من طرق أهل التعليم <sup>(٥)</sup> القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف <sup>(٦)</sup> ، وما ارتضيته آخراً من طريقة <sup>(٧)</sup> التصوف <sup>(٨)</sup> ، وما انجلي <sup>(٩)</sup> لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل

(١) في ( د ) : واثق

(٢) اليفاع : المشرف من الأرض

(٣) راجع فصل « علم الكلام »

(٤) في (ع) و (ط) : احتويته ، ولعل الصواب اجتويته ، أي كرهته

(٥) راجع فصل « مذهب التعليم »

(٦) راجع فصل « الفلسفة »

(٧) في ( د ) : طريق

(٨) راجع فصل « طريقة التصوف »

(٩) في بعض النسخ المطبوعة : وما انحل ، وفي ( ط ) : وما ينحل .

الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته <sup>(١)</sup> بنيسابور <sup>(٢)</sup> بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا - أحسن الله ( تعالى ) إرشادكم ، وألأن للحق قيادكم - أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة <sup>(٣)</sup> في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحرٌ عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه <sup>(٤)</sup> إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل <sup>(٥)</sup> حرب بما لديهم فرحون <sup>(٥)</sup> ، وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق <sup>(٦)</sup> حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً <sup>(٧)</sup> وسبعين فرقة » ، الناجية منها واحدة ، فقد كاد <sup>(٨)</sup> ما وعد أن يكون .

(١) في جميع النسخ المطبوعة : معاودتي

(٢) نيسابور : مدينة عظيمة من أعمال خراسان . فتجها المسلمون أيام عثمان . نبع منها عدد كبير من أئمة العلم حتى قال عنها ياقوت : « معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء » ، لم تزل فيها طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها . وقد هاجمها التتر واتوا على جميع إبنيتها حتى لم يبق فيها حجر قائم على آخر . ولم تزل خراباً إلى اليوم .

(٣) في ع : الأئمة .

(٤) في ط : فيه

(٥) قرآن كريم سورة « الروم » ( الآية : ٣٢ ، وسورة « المؤمنون » ( الآية ٥٣ )

(٦) في ط ، د : الصدوق .

(٧) في ( د ) : نيفا

(٨) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير بالنص التالي : « افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتقرت النصارى على الثنتين وسبعين فرقة ، وافتقرت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة . » رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٩) في ط ، د : كان

ولم أزل في عنفوان شبابي (وريمان عمري) <sup>(١)</sup> ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الحسين ، اقتحم <sup>(٢)</sup> لجثة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم <sup>(٣)</sup> كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميزين <sup>(٤)</sup> بحق ومبطل ، ومتسان ومبتدع <sup>(٥)</sup> ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته <sup>(٥)</sup> ، ولا ظاهرياً <sup>(٦)</sup> إلا وأريد أن أعلم حاصل <sup>(٧)</sup> ظاهريته <sup>(٨)</sup> ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا واحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً <sup>(٩)</sup>

(١) سقط من (ع ط)

(٢) في ط : اقتحم

(٣) في ط ، د : اقتحم .

(٤) مبتدع : من البدعة ومعناه لفة : الاختراع ، ثم غلب على الحدث المكروه في الدين . ولفظ المبتدع لا يكاد يستعمل الا في الدم .

(٥) في (ع ط) : بطانته : والبطانة في الاصل السريرة والرواد بها هنا : العقيدة الباطنة

(٦) الظاهرية : فرقة تنسب الى داود الظاهري ، وهي الفرقة التي تأخذ بظاهر القرآن والحديث ولا تتكلف تأويلا او تفسيراً بعيداً .

(٧) في ط : حال

(٨) في (ع ط) : ظاهريته .

(٩) جاء في لسان العرب : « الزنديق : القائل ببقاء الدهر ، معرب » زنديق » اي يقول ببقاء الدهر . واختلف في الزندقة هل هي مذهب معين ام تطلق على كل الحاد ؟ فقد قال ابن قتيبة في كتابه « المعارف » عند كلامه من اديان العرب في الجاهلية : « كانت النصرانية في ربيعة ، وكانت اليهود في حمير ، وكانت الزندقة في قريش ، اخذوها من الحيرة . » وكذلك « الخباط » المتزلي يستعملها في كتابه « الانتصار » للدلالة على فرقة خاصة . =

معتلاً <sup>(١)</sup> إلا وأتجسس وراءه للتنبه لإسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الامور دأبي وديديني من أول أمري وريمان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا <sup>(٢)</sup> في جيلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن <sup>(٣)</sup> الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء <sup>(٤)</sup> إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام . وسمعت الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » <sup>(٥)</sup> ، فتحرك باطني الى (طلب) <sup>(٦)</sup> حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليدات الوالدين والأستاذين <sup>(٧)</sup> ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات <sup>(٨)</sup> وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت في نفسي : أولا ،

= على ان ابن منظور يذكر في لسان العرب ان احمد بن يحيى يقول : « ليس في كلام العرب زنديق . فاذا ارادت العرب معنى ما يقوله العامة ، قالوا ملحد ودهري » .

راجع لزيادة الايضاح « فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٢٨ ( طبعة اولى ) وضعى الاسلام له ايضا ص ١٣٧ »

(١) المعتل : من التعطيل ، وهو انكار صفات الخالق . فالمعتلة تقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ان لا عرش هناك ، ولا استواء فعلية ، بل يحملون لفظ « استوى » على معنى استولى ، وكذلك في سائر الصفات .

(٢) في ط . د : وضعها

(٣) في ع : عهد بسن

(٤) في ط و ع : نشو ، وهو خطأ كما في المعاجم الشهيرة

(٥) قطعة من حديث اخرجه البخاري في صحيحه ، وتكملته : « كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جهنماء ؟ »

(٦) سقط من (ط ع)

(٧) الاستاذين ج استاذ ، وهو لفظ فارسي معرب ويجمع على اساتذة واساتيد ايضا .

(٨) في ط : بتلقينات .

إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور، فلا بُد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً<sup>(١)</sup> فإني اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة؛ فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكبر <من العشرة<sup>(٢)</sup>> بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي<sup>(٣)</sup> ، ولم يحصل لي منه إلا التمتع من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

(١) في ط ، وإمكانا .

(٢) سقط من ( ط ع ) .

(٣) في ( د ) : وشاهدت منه ذلك لم أشك في معرفتي بسببه .

## السفسطة مراض النظر<sup>(١)</sup> ومجهر العلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة<sup>(٢)</sup> إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع<sup>(٣)</sup> في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن<sup>(٤)</sup> أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات ، من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات<sup>(٥)</sup> ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر<sup>(٦)</sup> فيه ولا غائلة<sup>(٧)</sup> له ؟ فأقبلت يجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها<sup>(٨)</sup> ؛ فانتهى بي طول التشكك<sup>(٩)</sup> إلى أن لم<sup>(١٠)</sup> تسمح نفسي بتسليم الأمان

(١) ذهب بعض فلاسفة العرب إلى ان هذه اللفظة منحوتة من « صوليا » وهي الحكمة ومن « اسطس » وهي الموهبة، والحقيقة انها مأخوذة من الكلمة اليونانية « سوفيزما Sophisma » ومعناها المهارة في الأمور ، ومنها اشتق « سفسطيس Sophistes » اليوناني . الا انه أصبح يطلق بشيء من الزيادة على أولئك الذين دأبهم ان يستعملوا الأقاويل الخلابية والمغالطة في الكلام ، لانهم اتخلوا التعليم مهنة . واتخذوا بلقنون تلاميذهم كيف ينصرون او يهدمون اي رأي كان متى شأؤوا من غير اعتبار للحق والعدل كما في مجمل « لالاند » و « فرانك »

( من احصاء العلوم باختصار )

(٢) في ( د ) : عاطلة من علوم موصوفة بهذه الصفات .

(٣) في ( د ) : طمع

(٤) في ط . د : لا تبين .

(٥) في جميع النسخ المطبوعة : التقليديات .

(٦) في ط : لا غدر ، وفي د . لا غور .

(٧) في ع : غاية .

(٨) في ( د ) : فيها نفسي

(٩) في ( ط ع ) : التشيك

(١٠) في ط : لا .

في المحسوسات أيضاً، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول (١) : من اين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة والملاحظة، بعد ساعة، تعرف أنه متحرك (٢) وأنه لم يتحرك دفعة < واحدة (٣) > بفتة، بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً (٤) في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه (٥) أكبر من الارض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكديباً لا سبيل الى مدافعة، فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد (٦)، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت المحسوسات : بم تأمن (٧) أم تكون تفتك بالعقليات كثفتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، قلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر، اذا تجلى، كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه. وعدم تجلي ذلك الادراك، لا يبدل على استحالاته. فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وايدت إشكالها بالنام، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتبخل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع

(١) في (ط، ع) : واخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول ما...

(٢) في ع يتحرك.

(٣) سقط من ط، ع

(٤) في ط : الكواكب فتراها صفوا

(٥) في ط : انها

(٦) في (د) : في شيء واحد

(٧) في (ط، ع) : تأمل.

متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟ فم تأمن ان يكون جميع ما تمتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك [التي انت فيها]؟ لكن يمكن أن تطراً عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك، كنسبة يقظتك الى منامك، وتكون يقظتك نوعاً بالاضافة اليها! فاذا وردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة ما يدعيه (١) الصوفية انها حالتهم : اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي (لهم)، اذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم، احوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هي الموت، اذ قال رسول الله ﷺ : «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» (٢) فلعل حياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة. فاذا مات ظهرت له الاشياء، على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك : «فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (٣). فلما خطرت لي هذه الخواطر، (و) انقذت في النفس، حاولت لذلك (٤) علاجاً فلم يتيسر، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل (٥)، ولم يكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية : فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيها على مذهب السفطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من (٦) ذلك المرض، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام (٧)، بل بنور

(١) في ع : يدعيها

(٢) لم يصح هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في كتاب «امتنى المطالب في احاديث مختلفة المراتب» ل احمد الحوت ان هذه الحكمة من كلام علي ابن ابي طالب

(٣) قرآن كريم : سورة «ق» الآية ٢١.

(٤) في (ع، د) : فحاولت.

(٥) في (د) : بدليل.

(٦) في (ط) وفي (د) : من ذلك المرض والاعتدال

(٧) في (د) : ولا ترتيب كلام.

قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة <sup>(١)</sup> فقد ضيق رحمة الله [ تعالى ] الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله ﷺ <sup>(٢)</sup> عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » <sup>(٣)</sup> . قال <sup>(٤)</sup> : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « للتجافي عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود » <sup>(٥)</sup> . وهو الذي قال ﷺ فيه : « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » <sup>(٦)</sup> . فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب التردد له <sup>(٧)</sup> كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم فضحات ألا فتمرضوا لها » <sup>(٨)</sup> .

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل <sup>(٩)</sup> كال الجد في الطب ، حتى ينتهي <sup>(١٠)</sup> إلى طلب ما لا يطلب . فان الأوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد <sup>(١١)</sup> واختفى . ومن طلب ما لا يطلب ، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

(١) في ع : المجردة

(٢) سورة « الأنعام » الآية ١٢٥

(٣) في ط ، ع : فقال

(٤) أخرج هذا الحديث ابن جرير وميد الرزاق وابن أبي حاتم . وسأله الإمام ابن كثير بأسانيده في تفسيره ج ٣ ص ٢٤٩ لم قال : « لهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشهد بعضها بعضا . »

(٥) ورد هذا الحديث في مسند أحمد بالنص التالي : « ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فالتقى عليهم من نوره . فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطاه ضل . » من ابن عمر

(٦) في ط : لها

(٧) ورد هذا الحديث في الفتح الكبير للسيوطي بالنص التالي : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ، فتمرضوا له ، لعله أن يصيبكم نفحة منها ، فلا تشقون بعدها أبدا . » رواه الطبراني من محمد بن مسلمة .

(٨) في ط : الحكاية ان تعلم ، وفي د : الحكاية ان تعلم .

(٩) في ( د ) : انتهى

(١٠) في ط : نفر

## أصناف الطالبين

ولما شغاني الله تعالى من هذا المرض <sup>(١)</sup> بفضلته وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في اربع فرق :

- ١ . - المتكلمون : وهم يدعون <sup>(٢)</sup> أنهم أهل الرأي والنظر ؛
- ٢ . - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب <sup>(٣)</sup> التعليم والخصوصون بالاعتباس من الإمام المعصوم ؛

- ٣ . - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان ؛

- ٤ . - الصوفية : وهم يدعون <sup>(٤)</sup> أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي : الحق لا يعدو <sup>(٥)</sup> هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل <sup>(٦)</sup> طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتها ؛ و (من) <sup>(٧)</sup> شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو أشعب لا يرأب ، وشعب لا يمل بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة <sup>(٨)</sup> أخرى مستجدة .

(١) في ط : ولما كفاني الله مؤونة هذا المرض .

(٢) في ط : يزعمون

(٣) في ( د ) : وهم يدعون انهم اهل

(٤) في ( د ) : يزعمون

(٥) في ع : لا يعدو من

(٦) في ط ، د : سبيل

(٧) سقط من ( د )

(٨) في ع : الا ان يذاب بالنار . ويستأنف لها صيغة أخرى مستجدة .

فابتدأت<sup>(١)</sup> لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق<sup>(٢)</sup> مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنيّاً بطريق الفلسفة ، ومثلاً بتعليم<sup>(٣)</sup> الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

\*\*\*

- (١) في (ط) : فابتدأت ، وفي (د) : فانتدبت  
(٢) في (د) : هؤلاء الفرق  
(٣) في (ع) ، (د) : بتعليمات

## ١ - علم الكلام : مقصوده ومآله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام<sup>(١)</sup> فحصلته وعقلته<sup>(٢)</sup> ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ؛ إنما المقصود<sup>(٣)</sup> منه حفظ عقيدة أهل السنة [ على أهل السنة ] ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد لقي الله (تعالى) إلى عبادته على لسان رسوله عقيدة هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته<sup>(٤)</sup> القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلييسات

(١) نشأ علم الكلام في الإسلام على إثر قيام بعض العلماء بالبحث في العقائد الدينية والاستعانة بالأدلة العقلية والحجج المنطقية لتقرير الحق فيها . وكان ذلك يدمو إلى المناظرة والجدال بالأنوال فانتقلت واسطة المناظرة ، وهي الكلام ، إلى العلم كله ، وهكذا ظهرت الفرق المعروفة في الإسلام مثل المرجئة والقدرية والمعتزلة وسبى جميع العلماء الذين يبحثون في العقائد الدينية بحثاً عقلياً منطقياً بالتكلمين . وربما كان من أسباب تسميته علم الكلام أن أهم موضوع دار حوله الجدل والتنازع هو البات الكلام النفسي .

وعلى كل حال فإن الكلام اقتصر أخيراً على العلم الذي يتغلب الحجاج والدفاع عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية والأساليب المنطقية ، والرد على الخارجين عن مذاهب أهل السنة .

(راجع ابن خلدون ، المقدمة ، فصل « علم الكلام » ، وكذلك مادة « علم الكلام » في دائرة المعارف الإسلامية .

- (٢) في (ط) : ومقلته  
(٣) في (ط ، ع) : وإنما مقصوده  
(٤) في (ط) ، (د) : بمقدماته

أهل البدع<sup>(١)</sup> المحدثه ، على خلاف السنة الماثورة ؛ فمنه نشأ علم الكلام وأهله<sup>(٢)</sup> ولقد قام طائفة منهم بما نديهم الله (تعالى) اليه<sup>(٣)</sup> فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما احدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها<sup>(٤)</sup> من خصومهم ، واضطروهم الى تسليمها : إما التقليد ، او اجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والاخبار . وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في حق<sup>(٥)</sup> من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً (أصلاً) فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً . نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة<sup>(٦)</sup> الذب (عن السنة) بالبحث عن حقائق الامور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض<sup>(٧)</sup> وأحكامها . ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه<sup>(٨)</sup> الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحق<sup>(٩)</sup> بالكلية ظلمات الخيرة في اختلافات الخلق .

(١) في (ط.ع) : البدعة

(٢) في (ط.ع) : فلقد

(٣) في ط : له

(٤) في ط : تسلم

(٥) في ع : جنب

(٦) في د : تشوف ، وفي ع : تشوف المتكلمون الى مجاوزة

(٧) الجوهر في اللغة : الاصل ، واصطلاحاً : ما قام بنفسه . والعرض هو الموجود الذي يحتاج الى موضوع يقوم به ، كاللون المحتاج في وجوده الى جسم وقد قسم الحكماء الاقدمون الاعراض الى تسعة : الكم ، الكيف ، الاضافة ، الاين ، المتى ، الملك ، الوضع ، الفعل ، الانفعال ، وقد جمعها بعضهم بقوله :

نريد الطويل الاثوق ابن مالك

في بيته بالامس كان متكى

بيده رشح لواء فالتوى

فهذه عشر مقالات سوا

(٨) في (ط.ع) : في

(٩) في (ع) : ما يبحو

ولا أبعد<sup>(١)</sup> ان يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الاوليات !

والغرض الآن حكاية حالي ، لا الإنكار على من إستشفى<sup>(٢)</sup> به ، فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر<sup>(٣)</sup> !

\*\*\*

(١) في (ط) : ولا يبعد

(٢) في (د) : يستشفى

(٣) في (ط) : الاخر



## ٢ - الفلسفة

احاصيلها - ما يذم منها وما لا يذم - وما يكفر فيه قائله وما لا يكفر - وما يبدع فيه وما لا يبدع - وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويح باطلهم في درج ذلك - وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق - وكيفية استخلاص صراف الحقائق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم .

ثم اني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي اعلمهم في اصل [ذلك] ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة . وإذا ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساد حقاً . ولم ار احداً من علماء الاسلام صرف عنايته واهته الى ذلك .

ولم يكن في كتب « المتكلمين » من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ، الا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعقل<sup>(١)</sup> عامي ، فضلاً عن يدعي دقائق<sup>(٢)</sup> العلوم . فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي<sup>(٣)</sup> في عماية . فشمرت عن ساق الجد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ ، واقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنو<sup>(٤)</sup> بالتدريس والافادة لثلاث مائة نفر<sup>(٥)</sup> من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه [وتعالى] ، بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختلطة ، على منتهى علومهم

(١) في (ع) : بغافل .

(٢) في (د) : حقائق

(٣) في (ط) : زد

(٤) ممنو . مبتلى ، وفي (د) : ضمين

(٥) في (ط) : نفس .

في أقل من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأردده واتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخيل اطلاعاً لم اشك فيه .

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم ، فاني رأيتهم اصنافاً ، ورأيت علومهم اقساماً ، وهم على كثرة اصنافهم يلزمهم وصمة<sup>(١)</sup> الكفر والإلحاد ، وان كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والاولائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

(١) في (ع) : صمة .

## اصناف الفلاسفة

## وسمول وممة الكفر كافرهم

أعلم : أنهم ، على كثرة فراقهم واختلاف مذاهبهم ، ينقسمون الى ثلاثة اقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والألهيون .

الصنف الاول : الدهريون : وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان<sup>(١)</sup> ، كذلك كان ، وكذلك يكون ابداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم اكلوا بحشهم عن عالم الطبيعية ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، واكثروا الخوض في علم تشريح اعضاء الحيوان فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا<sup>(٢)</sup> معه الى الاعتراف بفاطر<sup>(٣)</sup> حكيم ، مطلع على غايات الامور<sup>(٤)</sup> ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع

(١) في (د) : ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان  
(٢) في (ع) : فاضطروا .  
(٣) في (ع) : بقادر  
(٤) في (د) : العلوم

الأعضاء مطالع ، الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان . إلا ان هؤلاء لكثرة بحشهم عن الطبيعة ، ظهر عندهم ، لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا ان القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه ايضاً ، وانها تبطل ببطلان مزاجه فتندم<sup>(١)</sup> ثم إذا انعدمت ، فلا يعقل اعادة المدوم كما زعموا . فذهبوا ( الى ) ان النفس قوت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار [ والحشر والنشر ] ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛ فانخل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات<sup>(٢)</sup> إنهاك الأنعام .

وهؤلاء ايضاً زنادقة : لأن أصل الإيمان : هو الإيمان بالله واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .  
الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم [ مثل ] :

سقراط . وهو أستاذ افلاطون وافلاطون أستاذ أرسطاطاليس ، وارسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب [ لهم ] العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً<sup>(٢)</sup> من قبل ، وانفضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهم يحملتهم ردوا على الصنفين الاولين من الدهرية والطبيعية ، واوردوا في الكشف عن فضائحتهم ما اغنوا به غيرهم . « وكفى الله المؤمنين القتال »<sup>(٣)</sup> بتقاتلهم . ثم رد ارسطاطاليس على افلاطون وسقراط ، ومن كان قبله من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، الا انه استبقى ايضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا

(١) في (ط.ع) : فيندم  
(٢) في (ع) و (د) : وخمر لهم ما لم يكن مخمراً  
(٣) قرآن كريم سورة الاحزاب « الآية ٢٥ »

لم يوفق للزوع عنها<sup>(١)</sup> ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم<sup>(٢)</sup> من المتفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا<sup>(٣)</sup> والفارابي<sup>(٤)</sup> وغيرها<sup>(٥)</sup> . على أنه لم يبق بنقل علم ارسطاطاليس احد من متفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين . وما نقله غيرها<sup>(٦)</sup> ليس يخلو عن تخييط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ؛ وما لا يفهم كيف يُرد أو يقبل ؟ وبمجموع ما صح عندنا من فلسفة ارسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة اقسام :

التكفير ١ . - قسم يجب التفكير به ؛ ٢ . - وقسم يجب التبديع به ؛ ٣ . - وقسم لا يجب إنكاره اصلاً ، فلنفصله .

(١) في (ع) : منها

(٢) في (ع) و (د) : متبعيهم

(٣) ابن سينا ( ٢٧٠ - ٤٢٨ هـ ) ويسميه الفرنج Avicenne : فيلسوف عربي ،

تهرب لفلسفته من فلسفة ارسطو وربما كانت مشتتة لها على كثير من الاصول الافلاطونية . كان فيلسوفاً عظيماً وطبيباً حاذقاً وكتابه « القانون » بقي قانون اوروبا الطبي قروناً عديدة ، وله فيه من الكتب الشهيرة كتابا « النجاة » و « الشفاء »

راجع : جميل صليبا :

« من افلاطون الى ابن سينا » مكتب النشر العربي بدمشق  
و« ابن سينا : درس تحليل منتخبات » مكتب النشر العربي بدمشق

(٤) الفارابي ( ٢٦٠ - ٣٢٩ هـ ) احد اعلام الفلسفة الاسلامية ، فارسي الاصل ، رحل

في صباه الى بغداد ، ثم التحق بحاشية سيف الدولة وبقي عنده الى ان مات وكان له فضل عظيم على فلسفة ارسطو ، فقد اكب على نقلها للعربية ، وسمي لذلك بالمعلم الثاني ، لان ارسطو معروف باسم المعلم الاول . وقد بلفتنا كتب ارسطو منقولة الى اللغات الاوربية القديمة والحديثة على النمط الذي اختاره الفارابي ، وقد كان فوق هذا كله موسيقياً بارعاً . والمشهور انه هو الذي اخترع الآلة المعروفة « بالقانون » . وقد عرض الفارابي في قسم من مؤلفاته فلسفته الخاصة . ولكن لم يصلنا من تلك المؤلفات الا القليل . وقد نشر ( ديترشي Dieterici )

في لندن سنة ١٨٩٠ ثمانين رسالة معنونة بـ ( مباحثات فلسفية للفارابي - Al Farabi's philosophische Abhandlungen ) والظاهر من فلسفته الخاصة انه جمع بين فلسفة ارسطو والافلاطونية الحديثة بمهارة فائقة ودقة تامة .

(٥) في (ط) و (د) : وامثالهم

(٦) في (ط) : غيرهم

## اقسام علوم

اعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي تطلبه ستة اقسام : رياضية ، ومنطقية ، وإلهية ، وطبيعية ، وسياسية وخلقية .

أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها<sup>(١)</sup> بالأمور الدينية تفياً وإثباتاً ، بل هي أمور براهنية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان :

أحدهما أن من ينظر فيها يتمجب<sup>(٢)</sup> من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، ويحسب<sup>(٣)</sup> أن جميع علومهم في الوضوح [ وفي ] وثاقة البرهان كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وقطيبتهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة<sup>(٤)</sup> فيكفر بالتقليد المحض ويقول لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم ، استدل<sup>(٥)</sup> على أن الحق هو الجهد والانتكار للدين . وكـ

المجد

(١) في (ط) و (د) : منه شيء

(٢) في (ع) : الاولى من ينظر فيها يتمجب

(٣) في (ط) : فيحسب

(٤) في (ع) و (د) : ما تناولته الالسن

(٥) في (ط) و (ع) : فيستدل

رأيت من يضل <sup>(١)</sup> عن الحق بهذا العذر <sup>(٢)</sup> ولا مستند له سواء !  
 وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم ان يكون حاذقاً  
 في كل صناعة ، فلا يلزم ان يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في  
 الطب <sup>(٣)</sup> ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل  
 صناعة أهل بلغوا فيها [ رتبة ] البراعة والسبق ، وإن كان الحق  
 والجهل ( قد ) يلزمهم في غيرها . فكلام الاوائل في الرياضيات  
 برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ؛ لا يعرف ذلك إلا من جرب به وخاض  
 فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي أُلْحِدَ <sup>(٤)</sup> بالتقليد ، ولم يقع منه  
 موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة <sup>(٥)</sup> ، وحب  
 التكاسل على ان يُصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ،  
 فانها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم  
 سرى <sup>(٦)</sup> إليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها لا وينخلع من  
 الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن ان الدين  
 ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب اليهم : فأنكر جميع علومهم  
 وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم

(١) في (ط.ع) : القدر

(٢) في (ع) : ممن ضل

(٣) في (د) : الحاذق في الطب والكلام حاذقاً في الفقه والنطق .

(٤) في (ط.ع) : اضل

(٥) في (ط.ع) : شهوة البطالة

(٦) في (ط.ع) : يسري

ان ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع <sup>(١)</sup> من عرف ذلك  
 بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، ولكن أعتمد أن الإسلام مبني  
 على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد <sup>(٢)</sup> للفلسفة حباً وللإسلام  
 بغضاً . ولقد عظم على الدين جنابة من ظن أن الإسلام ينصر  
 بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم  
 بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية .  
 وقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : « إن الشمس والقمر آياتان  
 من آيات الله ( تعالى ) لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم  
 ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ( تعالى ) وإلى الصلاة » <sup>(٤)</sup> ، وليس في هذا  
 ما يوجب انكار علم الحساب المعروف بسير <sup>(٥)</sup> الشمس والقمر واجتماعها  
 او مقابلتها على وجه مخصوص . أما قوله ( عليه السلام ) : « لكن الله  
 اذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحيح <sup>(٦)</sup>  
 أصلاً . فهذا حكم <sup>(٧)</sup> الرياضيات وآفتها .

وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا ، بل هي  
 النظر في طرق <sup>(٨)</sup> الأدلة <sup>(٩)</sup> والمقاييس <sup>(١٠)</sup> وشروط مقدمات البرهان  
<sup>(١١)</sup> وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه <sup>(١٢)</sup> .

(١) في (ع) : يسمع

(٢) في (ع) : فيزداد

(٣) في (ط.ع) : عليه السلام

(٤) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير بالنص التالي : « ان الشمس والقمر لا ينخسفان  
 لموت احد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده فلذا رأيتم ذلك فصلوا  
 وادعوا حتى ينكشف ما بكم » .

(٥) في (د) : لسير

(٦) في (ط.ع) : الصالح

(٧) في (ع) : حكمة

(٨) في (ط) : بل هو النظر في طرق

(٩) الدليل في الإصلاح : هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر

(١٠) القياس : قول مؤلف من فضلا اذا سلمت لزوم منهية للدأها قول آخر

(١١) البرهان هو القياس المؤلف من اليقينيات

(١٢) في (ع) : ترتيبها ، وفي (د) : تركيبها

المنقذ من الضلال (٦)

وأن العلم اما تصور (١) وسبيل معرفته الحد (٢) ، واما تصديق (٣) وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي ان ينكر ، بل هو (من) جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة ، وانما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات ؛ ومثال كلامهم فيها (٤) قولهم : اذا ثبت أن كل « ا » « ب » لزم ان بعض « ب » « ا » ، أي اذا ثبت أن كل انسان حيوان لزم أن بعض الحيوان انسان . ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تتعكس موجبة جزئية (٥) . وأي تعلق لهذا بمهات الدين حتى يحدد وينكر ؟ فإذا (٦) انكر لم يحصل من انكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم انه موقوف على مثل هذا الإنكار ، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ؛ وهو انهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم انها تورث اليقين لا محالة لكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما امكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ؛ وربما ينظر في المنطق ايضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن ان ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل (٧) بالكفر قبل الإنتهاء الى العلوم الإلهية .

(١) التصور هو ادراك الماهية بدون ان يحكم عليها بنفي او اثبات  
(٢) الحد لغة المنع ، وفي الاصطلاح : قول دال على ماهية الشيء وهو الذي يتركب من جنس الشيء وفصله الفرعيين كقولك « الانسان حيوان ناطق » فالجنس هو الحيوان ، والفصل (اي ما يميزه من غيره) هو النطق  
(٣) هو التصور الذي معه حكم ، وهو اسناد امر الى آخر سلباً او ايجاباً .  
(٤) في (ج) : فيه  
(٥) يشير الفزالي هنا الى بحث القضايا المعروفة في منطق ارسطو . فقد قالوا : « القضية قول يصح ان يقال لغائله انه صادق فيه او كاذب » وقسموها قسمين : ١ - موجبة كقولك زيد كاتب ، - سالبة كقولك زيد ليس بكاتب . والموجبة اما ان تكون : ١ ، جزئية ، كقولك : بعض الانسان طبيب ، ٢ ، كلية ، كقولك ، كل انسان فان ، وكذلك السالبة فاما ان تكون : ١ ، جزئية ، كقولك بعض الناس ليس طبيباً ، ٢ ، كلية ، كقولك : ما من انسان خالده .

(٦) في (د) : واذا

(٧) في (ط) : فاستعجل

فهذه الآفة ايضاً متطرفة اليه .

٣ - واما (علم) الطبيعيات فهو بحث عن عالم (١) السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار وعن الأجسام المركبة : كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن اسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها . وكذلك يضاهي بحث الطب (٢) عن جسم الانسان ، واعضائه الرئيسية والخادمة ، واسباب استحالة مزاجه (٣) وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب ، فليس من شرطه ايضاً انكار ذلك العلم ، الا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » ، وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين انها مندرجة تحتها ، وأصل جللتها ان تعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس (٤) والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته ؛

٤ - وأما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهان (٥) على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها (٦) ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس (٧) فيها من مذاهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديهم في سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا (٨)

(١) في (ع) : اجسام العالم ، وفي (د) : اجسام عالم السماوات .

(٢) في (د) : الطبيب

(٣) في (ط) : مزاجها

(٤) في (د) : فالشمس

(٥) في (ط) : بالبراهين

(٦) في (ع) : فيه

(٧) في (ع) و (د) : ولقد قرب ارسطاطاليس مذهبه

(٨) في (د) : صنفنا

كتاب « التهاوت » . أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين <sup>(١)</sup> وذلك في قولهم :

١ - إن الأجساد لا تحترق ، وإنما الثاب والمقاب هي الأرواح المجردة ، ( والمثوبات ) والعقوبات روحانية لا جسمية ؛

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية : فإنها ثابتة <sup>(٢)</sup> أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ؛

٢ - ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » ؛ وهذا <sup>(٣)</sup> أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يغزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض <sup>(٤)</sup> » .

٣ - ومن ذلك قولهم بقدوم العالم وأزليته ، فلم <sup>(٥)</sup> يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك من تفهيم الصفات ، وقولهم انه عالم <sup>(٦)</sup> بالذات ، لا يعلم زائد ( على الذات ) وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة <sup>(٧)</sup> ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

(١) في (ط.ع) : المسلمين

(٢) في (ط.ع) : كائنة

(٣) في (ع) و (د) : فهو

(٤) قرآن كريم سورة « سبا » الآية ٣ .

(٥) في (د) : ولم .

(٦) في (ط.ع) : عليهم .

(٧) المعتزلة من اعظم الفرق الإسلامية التي تركت انرا جليلا واضحا في حياة المسلمين العقلية . ذكروا في تاريخ نشأتها ان واصلا بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصري . وكان من جملة ما اختلف فيه الخوارج والجماعة ، ان الخوارج قالوا يتكفر مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بانه مؤمن ، الا انه فاسق . ولم يكن بد من ان يشترك واصل في ذلك . فكان ذلك بخروجه من الفريقين وقوله : « ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر ، بل له منزلة بين المنزلتين » . فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد ، فقيل لهما ولايتاهما : « معتزلون » .

هذا هو الرأي المشهور في ظهور هذه الفرقة ، وهناك آراء أخرى تجددها في الكتب التي بحثت من الفرق الإسلامية ، وتجددها في فجر الإسلام ، من ٣٤٤ ط ١ . وتتلخص تعاليم المعتزلة في الأصول الآتية :

وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » ما يتبين به <sup>(١)</sup> فساد رأي من يتسارع الى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ - وأما السياسيات فجميع <sup>(٢)</sup> كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالامور الدنيوية ( والإيالة ) السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزل على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء <sup>(٣)</sup> ؛

١ - القول بالمنزلة بين المنزلتين ، اي ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار بنفسه .

٢ - القول بالقدر وان الله لا يخلق اعمال الناس وانما هم الذين يخلقون اعمالهم ، وانهم من اجل ذلك يتأبون او يماقبون ، ولهذا وحده يستحق ان يوصف الله بالعدل .

٣ - القول بالتوحيد ، فنفاوا ان يكون لله تعالى صفات ازلية من علم وقدره وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته . والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ولا كثرة في ذاته البتة ، وهذا ما اشار اليه الغزالي .

٤ - قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، والشرع لم يجعل الشيء حسنا بامر به ، ولا القبيح قبيحا بتنهي عنه ، بل الشرع انما امر بالشيء الحسن ونهى عن الاخر لقبحه .

هذا من حيث العقائد ، الا اننا نجدهم - من ناحية اخرى - تعرضوا للامور السياسية التي سبقت عصرهم فاباحوا لانفسهم تشريع الصحابة وتقديم الحكم على اعمالهم وحروبهم .

وكان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصيغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وهم الذين خلقوا علم الكلام في الاسلام ، وهم اول من تسليح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين .

وقد لعب المعتزلة في ايام المأمون والمعتصم دورا هاما ، اذ كان مذهبهم هو الرسمي ، وقد حملوا الناس على الاخذ بفكرة خلق القرآن .

( راجع « تاريخ الجهمية والمعتزلة » للقسامي )

(١) في (ط.ع) : فيه .

(٢) في (ع) : فجميع .

(٣) في (د) : الانبياء عليهم السلام .

٦ . - وأما الخلقية : فجميع كلامهم ( فيها ) يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر اجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون الموابنون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى وسلك الطريق الى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم (١) من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذوها للفلاسفة ومزجوها بكلامهم ، توسلاً بالتجعل بها الى ترويح باطلهم . ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر جماعة من المتألهين ، لا يُخلي الله [ سبحانه ] العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، يبركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال ( صلى الله عليه وسلم ) : « بهم تقطرون وبهم ترزقون ومنهم كان أصحاب الكهف (٢) » . وكأنا في سالف الأزمنة ، على ما نطق ، به القرآن ، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد :

١- أما الآفة التي في حق الراد (٣) فعظيمة : إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مُدَوَّنًا في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يُهجر ولا يُذكر بل يُنكر على [ كل ] من يذكره إذ لم يسمعه أولاً إلا منهم ، فسبق الى عقولهم الضعيفة انه باطل ، لأن قائله مُبطل ، كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله » ،

(١) في (ع) و (د) : حالهم .

(٢) لم نشر في كتب الحديث الشبهة على هذا الحديث . ولكن وجدنا في الجزء الثالث من ٢٠٧ من البخاري ما يقرب من معناه ، إذ قال عليه السلام : « هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم ؟ » .

(٣) في (ع) و (د) : أما آفته في حق من رده .

عيسى رسول الله ، فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني » ؛ ولا يتوقف ريثاً يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار انكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ! ؟ فإن لم يكن كافراً الا باعتبار انكاره ، ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر بما هو حق في نفسه ، وإن كان ايضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق . والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه (١) ، حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال ( بل ) اعرف الحق تعرف أهله » و ( العارف ) العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً ؛ قبله سواء كان قائله مبطلاً أو حقاً ؛ بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل (٢) أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على الصراف إن ادخل يده في كيس القلاب (٣) ، وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والتبهرج (٤) ، مها كان واثقاً ببصيرته ؛ وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروي ، دون الصيرفي ( البصير ) ؛ ويمنع من ساحل البحر الآخرق ، دون السباح الحاذق ؛ ويصعد عن مس الحية الصبي دون المعزّم (٥) البارع .

ولعمري ! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكال العقل ( وتنام الآلة ) في تمييز الحق عن ( الباطل ، والهدى عن الضلالة ) وجب حسم الباب (٦) في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال (٧) ما أمكن ، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي

(١) في (ط) : والعامل ( بقول أمير المؤمنين ) علي ( بن أبي طالب ) رضي الله عنه .

(٢) في (ط) : من تضاعيف كلام .

(٣) القلاب : هو الرجل الذي تكون منه السقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها الى غير معناها . هذا هو المعنى الأصلي لهذه اللفظة . والظاهر هنا أن الغزالي يريد بها مزيفي النقود كما هو الأرجح من السياق .

(٤) في (ط) : التبهرج .

(٥) المعزّم : الراقي ، أي الذي يقرأ الرقي .

(٦) في (ط) : المادة .

(٧) في (ط) : الضلالة .

سندكرها (أصلاً) ، وإن سلموا عن (هذه) الآفة التي ذكرناها .  
ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في اسرار علوم الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع أن بعضها <sup>(١)</sup> من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ؛ وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية . وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ويترك <sup>(٢)</sup> ! فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة <sup>(٣)</sup> آيات من آيات القرآن وأخبار الرسول وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية لأن صاحب كتاب « أخوان الصفا » <sup>(٤)</sup> أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستندجاً قلوب المحققين بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بالإدعاءهم إياه كتبهم <sup>(٥)</sup> . وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر <sup>(٦)</sup> .

(١) سقط من (د) . (٢) في (ع) : ينكر (٣) في (د) : جملة من آيات القرآن .  
(٤) أخوان الصفا وخلائق الوفاء : جمعية سرية تأسست في منتصف القرن الرابع في البصرة وعرف لها فرع في بغداد . نشأت في وقت كانت كلمة فيلسوف تساوي بمفهومها معنى زنديق مارق . تستر أصحابها ما أمكنهم التستر لنشر آرائهم وإدانة معتقداتهم بين الناس ، خوفاً على حياتهم من أن يسيبها سهم اعدائهم . وأساس مذهب هذه الجماعة : « أن الشريعة الإسلامية دندست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والصلة الاجتهادية ، وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال » . وبعد رسائل أخوان الصفا موسوعة فلسفية علمية ضلها أصحابها في قالب أدبي بديع . وهي اثنتان وخمسون رسالة ، تطرق أصحابها للذكر جميع العلوم والمعارف الطبيعية والرياضية والفلسفية واللاهوتية والعقلية في كل هذه الرسائل ، إلا الأخيرة وهي الرسالة الجامعة فقد أجملوا خلاصة فلسفتهم فيها .

طبعت هذه الرسائل للمرة الأولى في الهند ١٨١٢ م ثم طبع المستشرق الألماني ديتريش خلاصة منها سنة ١٨٨٦ م في برلين ، وفي سنة ١٩٢٨ م ظهرت لها طبعة تامة في مصر . أما الرسالة الجامعة فقد حققها الدكتور جميل صليبا ونشرها المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٨ .

(٥) في (ع) : إياها كتبهم . (٦) الغمر : الجاهل .

فلا يضاف العسل ، وإن وجدته في محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع عنه مبنية على جهل عامي منشؤه أن المحجمة ، إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عُدِمَت (هذه) الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فإذا <sup>(١)</sup> نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلاً ؛ وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً . فأبدأ يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الرد .

٢ - والآفة الثانية آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم « كالأخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسناها وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم المزوج به لحسن ظن حصل فيما <sup>(٢)</sup> رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر <sup>(٣)</sup> والخطر . وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الاسماع عن مختلط <sup>(٤)</sup> تلك الكلمات ؛ وكما يجب على المعزم أن لا يمس الحية بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتردي به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره [ منه ] ، بأن يحذر هو [ في ] نفسه [ ولا يمسها ] بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله . وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسسم ، واستخرج منها <sup>(٥)</sup> الترياق وأبطل السسم ،

(١) في (ط) : فمهما (٢) في (د) : لحسن ظنه مما رآه . واستحسنه .  
(٣) في (ط) : الفروغ (٤) في (د) : تخليط .  
(٥) في (ط) : فاستخرج منه .



فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج اليه. وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القلاب، وأخرج منه الإبريز الخالص، وأطرح<sup>(١)</sup> الزيف والبهرج، فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج اليه؛ فكذلك العالم. وكما أن المحتاج إلى الترياق، إذا اشمازت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم [وجب تعريفه]، والفقيه المضطر إلى المال، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً، كما لا يجعل الزيف جيداً، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل، لا يجعل الحق باطلاً، كما لا يجعل الباطل حقاً. فهذا (مقدار) (٢) ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها.

(١) في (ط): واخرج، وفي (د): طرح.

(٢) سقط من (د).

### ٣ - مذهب التعليم<sup>(١)</sup> وعائلته

ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتقهمه وتزيف ما يزيف منه، علمت ان ذلك ايضاً غير وافٍ بكمال الغرض، وان العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت ثابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم<sup>(٢)</sup> بمعرفة معنى الامور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، فعن لي ان ابحث في مقالاتهم، لأطلع على ما في كناناتهم<sup>(٣)</sup>. ثم اتفق ان ورد عليّ امر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف [عن] حقيقة مذهبهم. فلم يسعني مدافعته، وصار ذلك

(١) مذهب التعليم، ويدعى الباطنية: وهو عقيدة إحدى الفرق التي تنسب نفسها إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، ولذلك يسمون أنفسهم «الاسماعيلية». كان بدء ظهوره دينياً محضاً فقرر: «ان لكل ظاهر باطنا، ولكل شرع تأويلاً». وقد عرف باسماء عديدة، منها: القرامطة، والمزدكية، والملحدة. وقد خلط القدماء منهم كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج. ومن جملة ما قالوا في الله تعالى: «أنا لا نقول هو موجود، ولا لا موجود، ولا عالم ولا جاهل...».

(٢) هذه بعض عقائدهم الدينية التي كانت منشأ هذه الفرقة، إلا أنها بدأت بعد ذلك تأخذ صبغة سياسية، وأخذ أصحابها يتحدثون بالخلق بالإمام المعصوم وقد فطن نظام الملك إلى ما يتهدد مركز الخلافة من جراء هذه التعاليم، وأخصها من الوجهة السياسية فكرة الإمام المعصوم، فرغب إلى الغزالي بالرد عليهم. وقد ذكر الغزالي ذلك ولم يناقشهم في هذا الفصل إلا في فكرة الإمام المعصوم.

(٣) راجع زيادة الإيضاح من تاريخ هذه الفرقة: كتاب

«الفرق بين الفرق» للبغدادي ص ٢٦٠ وما بعدها

(٢) في (ع.د): تحديثهم. (٣) في (ط.ع): كتبهم.

مستحثاً من خارج ، ضميعة للباعث الأصلي من الباطن ، فابتدأت (١) بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر اهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ( ورتبتها ) (٢) ترتيباً حكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض اهل الحق ( مني ) مبالغتي في تقرير حجتيهم ، فقال : « هذا سعي لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الانكار من وجه حق ، فقد أنكر احمد بن حنبل (٣) على الحارث المحاسبي ( رحمه الله ) ، تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : « الرد على البدعة فرض » فقال احمد : « نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم اجبت عنها ؛ فيم تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، او ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه ؟ » .

وما ذكره احمد بن حنبل حق ، ولكن في شبهة ( لم تنتشر ) (٤) ولم تشتهر فأما اذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب [ عنها ] إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغي ان لا يتكلف لهم شبهة لم [ يتكلفوها ] (٥) ؛ ولم اتكلف انا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من اصحابي المختلفين إلي ، بعد ان كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى انهم يضعفون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حججهم . ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم ارض لنفسي ان يظن بي الغفلة عن أصل حججهم ، فلذلك اوردتها ، ولا ان يظن بي اني - وان سمعتها - لم افهمها ، فلذلك قورتها .

(١) في (ط.د) : فانتدبت . (٢) سقط من (د)

(٣) احمد بن حنبل ( ١٦٤ - ٢٤١ هـ ) أحد الأئمة الأربعة ، عرف بعمارسته للمعتزلة في قولهم بخلق القرآن فملأ أيام المأمون .

(٤) سقط من (د) (٥) في (ط.د) : لم يتكلف ايرادها .

والقصود ، اني قررت شبهتهم الى اقصى الامكان ثم اظهرت فسادها [ بغاية البرهان ] .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم . ولولا سوء نصره الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة - مع ضعفها - الى هذه الدرجة ؛ ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق الى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، والى مجادلتهم في كل ما نطقوا به ، فجادوهم في دعواهم : « الحاجة الى التعليم والمعلم » ، وفي دعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » . وظهرت حججهم في اظهار الحاجة الى التعليم والمعلم ، وضعف قول التكرين في مقابلته ، فاعتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم (١) ، وانه لا بد وأن يكون ( المعلم ) معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم ( هو ) محمد ﷺ فإذا قالوا : « هو ميت » ، فنقول : « ومعلمكم غائب » ، فإذا قالوا : « معلمنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد » ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو اشكل عليهم مشكل . فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد واكمل التعليم اذ قال الله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم [ وأتممت عليكم نعمتي ] » (٢) . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته .

فبقي قولهم : « كيف تحكون في ما لم تسمعه ؟ أبالنص ولم تسمعه ، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف ؟ » فنقول : نفعل ما فعله معاذ (٣) إذ بعثه رسول الله عليه السلام الى اليمن : أن تحكم بالنص عند وجود

(١) في (د) : التعلم ، (٢) سورة « المائدة » الآية ٤

(٣) معاذ بن جبل : ( ١٧ ق. هـ - ١٧ هـ ) يشير الغزالي الى الحوار الذي دار بينه وبين النبي عليه السلام قبل ان يبعثه الى اليمن قاضياً فقد سأله الرسول : « بم تقضي يا معاذ ؟ » فقال : « بما في كتاب الله » . قال « فان لم تجد ؟ » قال « بما في سنة رسول الله » قال : « فان لم تجد ؟ » قال : « اجتهد رأيي » فقال رسول الله : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يحب رسول الله » .

النص، وبالاجتهاد عند عدمه . ( بل ) كما يفعله دعائهم إذا بعدوا عن الإمام الى أقاصي البلاد <sup>(١)</sup> ، اذ لا يمكنه ان يحكم بالنص <sup>(٢)</sup> ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة الى بلدة الإمام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلي بالاجتهاد ، اذ لو سافر الى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذا ، جازت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « ان المخطيء في الاجتهاد له أجر واحد ولمصيب أجران » فكذلك في جميع المجتهدين ، وكذلك امر صرف الزكاة الى الفقير ، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غني باطنياً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وان أخطأ <sup>(٣)</sup> ، لأنه لم يؤاخذ الا بموجب ظنه . فإن قال : « ظن مخالفه كظنه . » فأقول : « هو مأمور بإتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وان خالفه غيره . » فإن قال : « فالمقلد يتبع أبا حنيفة <sup>(٤)</sup> والشافعي <sup>(٥)</sup> ( رحمهما الله ) أم غيرهما » فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ » فيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ؛ فكذلك في المذاهب . »

(١) في (ع) : (د.ع) : الشرق

(٢) في (ط) : « اذ لا يمكنهم ان يحكموا بالنص »

(٣) في (ط.ع) : « ولا يكون مؤاخذاً به وان أخطأ . »

(٤) أبو حنيفة النعمان : ( ٨٠ - ١٥٠ هـ ) هو الإمام الأعظم ، صاحب المذهب القضي به الان في أكثر الممالك الاسلامية .

فارسي الاصل نشأ بالكوفة وعاصر بعض الصحابة واشتغل بالفتنة واستنبط فقهه من القرآن الكريم . رضي ان يعيش تاجر خر ورغب من وظائف الملوك والخلفاء ، وعرض عليه القضاء أيام خلفاء بني أمية ثم أيام المنصور فابى ، فسجنه وأذاه .

(٥) الشافعي : ( ١٥٠ - ٢٠٤ هـ ) ولد بغزة من بلاد الشام : انبغ من انتجت فريش بعد عصر الصحابة . كان واسع العلم بالكتاب والسنة وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف آراء العلماء ، فليما بكلام العرب واللغة العربية والشعر . وهو مستنبط علم أصول الفقه وواضعه . أشهر مصنفاته كتاب « الام » في الفقه مطبوع في ٧ مجلدات .

فرد الخلق الى الاجتهاد ضرورة - الأنبياء والأئمة مع العلم بأنهم ( قد ) <sup>(١)</sup> يخطئون ، بل قال رسول الله ﷺ : « انا احكم بالظاهر والله يتولى السرائر » <sup>(٢)</sup> . اي انا احكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل الى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدين ، فكيف يطمع <sup>(٣)</sup> في ذلك ؟

ولهم هنا سؤالان : احدهما قولهم هذا وإن صح في المجتهدين فلا يصح في قواعد العقائد ، اذ المخطيء فيه غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟ فأقول : « قواعد العقائد <sup>(٤)</sup> يشتمل عليها الكتاب والسنة ؛ وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله ( تعالى ) <sup>(٥)</sup> في كتابه ، وهي خمسة ذكرتها في كتاب القسطاس المستقيم . » فإن قال : « خصوصاً يخالفونك في ذلك الميزان . » فأقول : « لا يتصور ان يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، [ اذ لا يخالف فيه ] أهل التعليم ، لأنني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق وغير مخالف له ؛ ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات . » فإن قال : « فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ » ، فأقول : « لو اصغوا الي لرفعت الخلاف بينهم ؛ وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله لتعلم انه حق وانه يرفع الخلاف قطعاً لو اصغوا

(١) سقط من (د) .

(٢) لا وجود لهذا القول في كتب الحديث . وجزم المصنف الحديث بأنه لا اصل له ، وكذلك انكره المزي وغيره وان ذكره الفقهاء في كتبهم .

(٣) في (ط.ع) : « تطمع . »

(٤) سقط من (د) .

(٥) سقط من (د) .

ولا يصفون [ اليه ] بأجمعهم ! بل قد أصغى الي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم . وامامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم اصفائهم ، فلم لم يرفع الى الآن ؟ ولم لم يرفع علي رضي الله عنه وهو رأس الائمة ؟ او يدعي أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم الى الآن ؟ ولأي يوم اجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهي الى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق (١) ، والإغارة على الاموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف [ من الخلاف ] ما لم يكن بمثله عهد . فإن قال : « ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء اليك دون خصمك ، وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم . » وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : وهذا أولاً يتقلب عليك ، فإنك اذا دعوت هذا المتحير الى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولاً من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ اتجيب بأن تقول : امامي منصوص عليه ؟ فمن (٢) يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وانما يسمع دعواك مع تطابق اهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم لك النص ؛ فإن كان متحيراً في اصل النبوة ، فقال : هب ان امامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي اني أحبي أباك ، فأحياء ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا اعلم صدقه ؟ ولم يعلم كافة الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة ، بل عليه من الاسئلة المشككة ما لا يدفع الا بدقيق النظر العقلي ؛ والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين

(١) في (د) : الطريق .  
(٢) في (ط) و (ع) و (د) : فمتى .

المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . - وسؤال الإضلال وعسر [ تحرير ] الجواب عنه مشهور - فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن امامك أولى بالتابعة من مخالفه ! فيرجع الى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة وأوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه .

وانما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لا يسبق سريعاً الى الإقحام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : « فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟ » فأقول : « نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : انا متحير ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : انت كمرىض ، يقول : انا مريض ولا يعين مرضه (١) ويطلب علاجه . » فيقال له : « ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع او اسهال او غيرهما . » فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ؛ فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم منه ايضاً صحة الوزن (٢) ، كما يفهم متعلم علم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه . وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ؛ فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهر » أولاً ؛ وفي كتاب « حجة الحق » ، ثانياً وهو جواب كلام لهم عرض علي ببغداد ، وفي كتاب « مفصل الخلاف » ، الذي هو اثنا عشر فصلاً ، ثالثاً وهو جواب كلام عرض علي بهمدان ؛ وفي كتاب « الدرج ،

(١) في (ط) و (ع) : ولا يلتزم من مرضه .  
(٢) في (ط) و (ع) : ويفهم ايضاً من صحة الوزن .

المرقوم « بالجدول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض علي بطوس ؛ وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم واظهار الاستغناء عن الإمام [ المعصوم ] لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الإمام ، طال ما جاربناهم <sup>(١)</sup> فصدقناهم في الحاجة الى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بمجلها ! فلما عجزوا أحالوا [ على ] الإمام الغائب ، وقالوا : « ( انه ) لا بد من السفر اليه . » والمعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالتضمخ <sup>(٢)</sup> بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس <sup>(٣)</sup> وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه ارك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس ، بل استرك كلامه واستردله ، وهو المحكى في كتاب « إخوان الصفا » ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب <sup>(٤)</sup> العلم ثم يقنع بمثل ذلك

(١) في (د) : طالما جربناهم .

(٢) التضمخ لا يكون لفة الا بالطيب ، وفي (د) : المضمخ ، اللطخ (هـ) .

(٣) فيثاغورس : أحد فلاسفة الاغريق العظام الذين تركوا اثراً عظيماً في العلوم الرياضية . أما فلسفته — كما ذكرها ارسطو — فانها تقوم على اساس واحد ، منه تنفرع كل التفاصيل وهو : « ان العدد ماهية الاشياء ، وان الاشياء مصنوعة من العدد » . ويفسرها الفيثاغوريون انفسهم بعبارة اكثر وضوحاً وهي قولهم : « ان الاشياء تفسر بالاعداد » . أما مولده وماتته فغير معلومين على الضبط ، والراجع انه عاش بين القرنين السادس والخامس ق.م . (٤) في (ع) : تحصيل .

العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا ظاهريهم وباطنيهم ؛ فرجع حاصلهم الى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة الى المعلم ، ومجادلتهم في افكارهم الحاجة الى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى اذا ساعدتهم على الحاجة الى المعلم مساعد ، وقال : « هات علمه وأفدنا من تعليمه ! » وقف قال : « الآن اذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فانما غرضي هذا القدر فقط . » اذ علم انه لو زاد على ذلك لاقتضح ولميجز عن حل أدنى الاشكالات <sup>(١)</sup> ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم بتقلهم <sup>(٢)</sup> فلما خبرناهم <sup>(٣)</sup> نقضنا اليد عنهم ( ايضاً ) .

(١) في (ع) : المشكلات .

(٢) تقلهم : يفضضهم ، من القلى وهو البفض . وهذه الجملة مقتبسة من الحديث الشريف : « اخبر تقله » .

(٣) في (د) : جربناهم .

## ٤ - طرق الصوفية

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية <sup>(١)</sup> وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم <sup>(٢)</sup> قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل ( بها ) الى تخلية القلب عن غير الله ( تعالى ) <sup>(٣)</sup> وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي <sup>(٤)</sup> ( رحمه الله ) ،

(١) مصادر من التصوف والصوفية :

- ١ - ابن الجوزي : نقد العلم والعلماء ص ١٧١ - ٤٠٤ .
- ٢ - الشمراني : الطبقات الكبرى .
- ٣ - ابن خلدون : المقدمة ، فصل علم التصوف .
- ٤ - عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي .
- ٥ - محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ص ١٠٩ - ٢٩٠ .
- ٦ - محمود البشبيشي : الفرق الاسلامية .
- ٧ - محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ص ٢٧٥ - ٢٩٠ .
- ٨ -
- ٩ -
- ١٠ -

Nicholson : Mystics of Islam, London 1914  
Studies in Islamic Mysticism, Cambridge 1921  
Massignon : La passion d'Al-Hallaj

(٢) في (ع) : علمهم ، وفي (ط) : معلم .

(٣) سقط من (د) .

(٤) أبو طالب المكي ( ١ - ٢٨٨ هـ ) كان جالعا مجتهدا في العبادة ، وله مصنفات في التوحيد . قيل : « ان رباسته الصوفية » كانت عظيمة جدا ؛ اذ أنه هجر الطعام زمنا ، واقتصر على اكل الحشائش الباحة فاخضر جلده من كثرة تناولها !!! وقيل انه زار بغداد ، -

وكتب « الحارث المحاسبي » <sup>(١)</sup> ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » <sup>(٢)</sup> و « الشبلي » <sup>(٣)</sup> ، و « ابي يزيد البسطامي » <sup>(٤)</sup> ، [ قدس الله ارواحهم ] وغيرهم من المشايخ <sup>(٥)</sup> ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وخلصت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق <sup>(٦)</sup> والحال <sup>(٧)</sup> وتبدل الصفات . وكمن بالفرق بين ان تعلم حد الصحة وحد الشيع واسبابها وشررطها ، وبين ان تكون صحيحا

= فلما وعظ الناس خلط في كلامه ، فتركوه وهجروه ، وقد حفظ عنه انه قال يومئذ : « ليس على المخلوقين اضر من الخالق » .

اما كتابه « قوت القلوب » فقد قالوا : « انه لم يصنف في الاسلام مثله في دقائق الطريقة ( اي الصوفية ) ولؤلؤه كلام في هذه العلوم لم يسبق الي مثله . » ويشتق قوت القلوب بحرص مؤلفه واحتياطة فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لفته . وقد اختصره السيد جمال الدين القاسمي ، ولا يزال مخطوطا في الخزائن القاسمية .

(١) المحاسبي : ( ٤ - ٢٤٣ هـ ) قيل انه سمي بهذا الاسم لكثرة محاسبته نفسه ، كان من اجل علماء زمانه ومن اكثرهم دراية بعلوم الشريعة . وقد ذكر مترجموه انه الف في هذه العلوم ( الحديث والفقه والكلام والتصوف ) نحو مئتي كتاب !

(٢) الجنيد : ( ٤ - ٢٩٧ هـ ) اصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه في المراق . تفقه على « ابي نور » صاحب الامام الشافعي . وكان شيخ وقته وقريد عصره ، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون وهو في نظر الصوفية سيد علماء الاخرة على الاطلاق .

(٣) الشبلي : ( ٢٤٧ - ٣٣٤ هـ ) خراساني الاصل ، بغدادي المولد والنشأ . يرى المتبع لاختباره وحوادثه في تراجم الصوفية ، كطبقات الشمراني وغيرها ، انه من اولئك الزهاد الناهرين الذين انقطعوا للعبادة والرياضة . وكان له في مجالسه واحاديثه مع مشرائه ، ابناء طريقتة ، طابع خاص - كما هي الحال في اعلام الصوفية .

(٤) ابو يزيد البسطامي : ( ٤ - ٢٦٤ هـ ) كان جده مجوسيا ثم اسلم ، وقد سئل : « باي شيء وجدت هذه المرفة ؟ » قال : « بطن جائع وبين عار » وكان يقول : « لو نظرت الى رجل اعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء ، فلا تفتروا به حتى تتظروا كيف يجدونه عند الامر والنهي ، وحفظ الحدود ، واداء التريمة . » وقد عرفت له مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة . (٥) في ط : وغيرهم من المشايخ (٦) اللوق في معرفة الله : عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب اوليائه ، فيفرون بواسطته بين الحق والباطل ، دون ان يعتمدوا في ذلك التفريق على كتاب او غيره . (٧) الحال عند التصوفة : معنى يرد على القلب من =

وشبعان؟ وبين ان تعرف حد السكر، وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء بخرة تصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين ان تكون سكران! بل السكران لا يعرف حد السكر؛ وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء! والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه<sup>(١)</sup> واسبابه، وبين ان تكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا!

فعلمت يقيناً انهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسع والتعلم، بل بالذوق والسلوك<sup>(٢)</sup>. وكان (قد) حصل معي - من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية - ايمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر. فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر<sup>(٣)</sup>، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها.

= غير تصنع ولا اجتناب ولا اكتساب، من طرب او حزن، او قبض او بسط ويزول الحال بظهور صفات النفس، فاذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً، فالاحوال مواهب، والمقامات مكاسب، فالاولى تأتي من عين الجود، والثانية ببذل الجهد.

(١) في (ط.ع) : وشروطها واسبابها. الزهد لغة : هو الامراض عن الشيء، تقول زهدت فيه وعنه، اي امرضت. واصطلاحاً : هو الامراض عن الدنيا.

والفرق بين الزهد والتصوف : هو ان الزهد عام منذ جميع الازمان، وقد عرفه اليونان قديماً في تعاليم الفلاسفة الروافيين، ولا غاية للزاهد غير الابتعاد عن اللذات. اما التصوف فلم يعرف منذ كل الازمان، وغايته ابعاد وطريقه اشد، فهو والزهد من حيث بعض المظاهر متفقان، الا ان الرياضات التي يقوم بها التصوف لا يفقه الزاهد لها معنى.

(٢) السالك، هو الذي مشى على القامات بحاله، لا بطلعه ومنه السلوك.

(٣) في (ع.د) : مجرد.

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطعم (لي) في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجاني<sup>(١)</sup> عن دار النور، والإقامة الى دار الخلود، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى. وان ذلك لا يتم الا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلاقات.

ثم لاحظت احوالي، فاذا أنا منغمس في العلاقات، وقد أهدت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فاذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت؛ فتيقنت أنني على شفا جرف هار، وأني قد اشفيت على النار، إن لم اشتغل بتلافي الاحوال.

فلم أزل اتفكر فيه مدة؛ وانا، بعد، على مقام الاختبار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق<sup>(٢)</sup> لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها<sup>(٣)</sup> جند الشهوة حملة فيفتريها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام، ومناادي الايمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتحجیل! فان لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن (هذه العلاقات) فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار! ثم يعود الشيطان ويقول: «هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فانها سريغة الزوال؛ فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن

(١) في (د) : والتجاني

(٢) في (ع) : تصفو

(٣) في (ع) : ويحمل عليه.

المنظوم الخالي عن التكدير والتنقيص ، والأمر <sup>(١)</sup> المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفقت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة <sup>(٢)</sup> ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة <sup>(٣)</sup> ؛ وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حق اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة [ إلي ] ، فكان لا ينطق <sup>(٤)</sup> لساني بكلمة [ واحدة ] ولا أستطيعها البتة ، حتى <sup>(٥)</sup> أورثت هذه الثقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة <sup>(٦)</sup> الطعام والشراب : فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنضم ( لي ) لقمة ؛ وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم » .

ثم لما أحسست بعجزتي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر اذا دعاه » <sup>(٧)</sup> ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال ( والاهل والولد والاصحاب ) ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبر <sup>(٨)</sup> في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم

(١) في (ط.ع) : والامن

(٢) في (ط) : الدين

(٣) في (ط) : ست وثمانين وأربعمئة .

(٤) في (ط) : ينطق

(٥) في (د.ع) : ثم .

(٦) في (د.ع) : قزم ، وفي ط : « مرا » أما الأولى فغير صحيحة لغة ، وأما الثانية فلا وجود لها في معاجم اللغة ، ولعلها مرادة وهي الهناء .

(٧) قرآن كريم : سورة النمل الآية ٦٢ .

(٨) في (د.ع) : اوري .

من يجوز أن يكون للاعراض عما كنت فيه سبب ديني <sup>(١)</sup> ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم . ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ؛ ( وأما من قرب من الولاة ) <sup>(٢)</sup> فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ ، واعراضني عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : « هذا أمر سماوي ، وليس له سبب إلا » عين أصابت أهل الاسلام وزمرة أهل العلم <sup>(٣)</sup> .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصّد للمصالح ، لكونه وفقاً على المسلمين . فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعيب له أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سقتين لا شغل لي الا العزلة والخلو ؛ والرياضة والمجاهدة <sup>(٤)</sup> ، اشتغلاً بتزكية النفس ، وتهذيب الاخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله ( تعالى ) <sup>(٥)</sup> ، كما كنت حصلته من كتب <sup>(٦)</sup> الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة

(١) في (ط.ع) : الامراض مما كنت فيه سببا دينيا

(٢) سقط من (د) .

(٣) في (ط) : العالم

(٤) المجاهدة : حمل النفس على كل حال

(٥) في (ط.ع) : علم

(٦) سقط من (د)



والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ؛ فسرت الى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فأثرت العزلة [ به ] أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهات العيال ، وضرورات المعاش (٢) ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفر [ لي ] الحال الا في أوقات متفرقة . لكفي مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود اليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ؛ وانكشفت لي في اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ؛ والقدر الذي أذكره لينتفع به : أفي علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله ( تعالى ) خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الاخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من ( نور ) مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فماذا (٢) يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله ( تعالى ) (٣) ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة (٤) ، استغراق القلب بالكلية بذكر

(١) في (د) : الميضة (٢) في (د) : ماذا (٣) سقط من (د) (٤) يريد الفزالي ان يقول : كما ان أول شرط للصلاة هو طهارة الجسد والمكان الذي لا تصح الصلاة الا به ، وكذلك أول شرط في الطريقة طهارة القلب . ثم ان مفتاح الصلاة هو تكبيرية التحريم التي تبدأ بها فتعزم على المصلي كل شيء ، وكذلك مفتاح الطريقة استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن أول الطريقة تبدى المكاشفات ( والمجاهدات ) ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، الى درجات يضيق عنها نطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة . ينتهي الأمر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول (١) ، وطائفة الاتحاد (٢) وطائفة الوصول (٣) ، وكل ذلك خطأ . وقد بنا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الاسنى » (٤) ؛ بل الذي لايسته (٥) تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

(١) الحلول : هو ان يكون الشيء حاصلًا في الشيء ومختصًا به بحيث تكون الإشارة الى احدهما إشارة الى الآخر تحقيقًا او تقديرًا (كليات ابي البقاء)

وحاول شيء في شيء : هو ان يكون وجوده في نفسه هو بعينه وجوده لذلك الشيء . ويريد المتصوفة به ان الله تعالى يحل في العارفين . (١ هـ . ملخصًا من كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي)

(٢) الاتحاد ، في الاصل : امتزاج الشئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئًا واحدًا . وفي عرف الصوفية : الاتحاد هو شهود الحق واتحاده به ، من حيث كون كل شيء موجودًا به . معدوما بنفسه ، لا من حيث ان له وجودًا خاصًا اتحد به ، فانه محال .

(٣) لم نثر على تعريف اصطلاحى للوصول في الكتب المعروفة ، ولعل الفزالي يريد بها الاتصال بواجب الوجود .

(٤) في (ع) و (ط) : المقصد الاقصى ، لم نثر على كتاب بهذا الاسم للفزالي ونرجح انه الكتاب المطبوع باسم المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى ، اذ ان البحث المشار اليه هنا موجود في ص ١٢٢ ( مطبعة التقدم ، ١٣٢٢ هـ ) .

(٥) في (د) : زايته ، وفي الدليل : ثاولته .

وكان ما كان بما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخير ! (١)  
وبالمجلة ، فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة  
الا الاسم ، وكرامات الاولياء ، [ هي ] على التحقيق ، بدايات الانبياء .  
وكان ذلك أول حال رسول ﷺ ، حين أقبل (٢) الى جبل « حراء » (٣) ،  
حيث (٤) كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « أن محمداً  
عشق ربه ! »

وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ،  
فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، ان اكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك  
بقرائن الاحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الايمان . فهم القوم  
لا يشقى جلسهم . ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم امكان ذلك يقيناً بشواهد  
البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « احياء  
علوم الدين » (٥) .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من  
التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان .

فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذي أوتوا العلم  
درجات » (٦) .

ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من  
هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب ! انهم كيف يهذون !  
وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك » حتى اذا خرجوا من عندك

(١) هذا البيت لابن المعتز .

(٢) في ط : حيث تبطل .

(٣) حراء : جبل من جبال مكة ، وهو على ثلاثة اميال منها . كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار منه قبل ان يأتيه الوحي ، وفي هذا الغار اناه جبريل بالرسالة العظمى التي هربت وجه التاريخ ودفعت البشرية الى الغاية المظلمة .

(٤) في جميع النسخ : حين

(٥) في (د) : الاحياء

(٦) قرآن كريم : « سورة المجادلة » الآية ١١ .

قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، اولئك الذين طبع الله على  
قلوبهم واتباعوا أهواءهم (١) ، ( فأصمهم وأعمى ابصارهم ) .  
وبما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « حقيقة النبوة وخاصيتها »  
ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة اليها .

\*\*\*

(١) قرآن كريم « سورة محمد » الآية ١٧ .

## حقيقة النبوة

## واضطراب كافة الحس إليها

اعلم : أن جوهر الانسان في أصل<sup>(١)</sup> الفطرة ، خلق خالياً ساذجاً لاخير معه من عوالم الله ( تعالى ) ، والعوالم كثيرة لا يحصوها الا الله تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك الا هو »<sup>(٢)</sup> وانما خبره من العوالم<sup>(٣)</sup> بواسطة الإدراك ، وكل ادراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ؛ ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له [ حاسة ]<sup>(٤)</sup> البصر ، فيدرك بها الألوان والاشكال ، وهو اوسع عوالم الحسوسات .

ثم ينفخ فيه<sup>(٥)</sup> السمع ، فيسمع الأصوات والنفثات . ثم يخلق له النوق . وكذلك الى أن يجاوز عالم الحسوسات ، فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طوراً آخر من أطوار

(١) في (د) : أول (٢) سقط من (د) (٣) سورة « المائدة » الآية ٢١ (٤) في (ط.ع) : في العالم (٥) سقط من (د) (٦) في (د.ع) : ينفخ له .

وجوده : فيدرك فيه اموراً زائدة على ( عالم )<sup>(١)</sup> الحسوسات ، لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى الى طور آخر ، فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، واموراً لا توجد في الاطوار التي قبله .

ووراء العقل طوراً آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، واموراً أخرى ، العقل معزول عنها كمزلة قوة التمييز عن ادراك المعقولات ، ومزلة قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأبأها واستبعدوها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها : وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم الا انه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن انه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والاشكال ، وحكي له ذلك ابتداء ؛ لم يفهمها ولم يقر بها . وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن اعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم : إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، اما صريحاً واما في كسوة مثال يكشف عنه التعمير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه - وقيل له : « ان من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول ( عنه ) »<sup>(٢)</sup> إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب . - لانكسر ، واقام البرهان على استحالة وقال : « القوى الحساسة اسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء »<sup>(٣)</sup> مع وجودها وحضورها ؛ فبأن لا يدرك مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياسي يكذب الوجود والمشاهدة . فكما ان العقل طور من اطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها انواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة ايضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ؛ وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة ، اما ان يقع : في امكانها ، او في وجودها ووقوعها ، او في حصولها لشخص معين .

(١) سقط من (د) (٢) سقط من (د) (٣) في (د) : الشبه .

ودليل امكانها ووجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور ان تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم ؛ فان من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بالهام الهى وتوفيق من جهة الله ( تعالى ) (١) ، ولا سبيل اليها بالتجربة . فمن الاحكام النجومية ما لا يقع الا في كل الف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان ، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل ؛ وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها ؛ إنما ذكرناها لأن معك نموذجاً منها ، وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الانبياء ( عليهم الصلاة والسلام ) ، ولا سبيل اليها للعقل ببضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة (٢) ليس لك منها انموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما (٣) التصديق بعد الفهم : وذلك الانموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس ( اليه ) . فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين الا بمعرفة احواله ، اما بالمشاهدة ، او بالتواتر والتسامع ، فإنك اذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك ان تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع

(١) سقط من (د) (٢) في (د) : خاصة (٣) في (د) وإنما خاصة النبوة التصديق بعد التفهم .

اقوالهم ، وان لم تشاهدهم ، ولا تعجز ايضاً عن معرفة كون الشافعي (١) ( رحمه الله ) (٢) فقيهاً ، وكون جالينوس (٣) طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير : [ بل ] بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر في القرآن والاخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ( ص ) على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في المباديات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق (ص) في قوله : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (٤) وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » (٥) وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهوومه ثم واحد كفاه الله ( تعالى ) » (٦) هموم الدنيا والآخرة ، فاذا تجربت ذلك في الف واليقين وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تتأرى فيه .

(١) راجع ض ٨٩ حاشية «هـ»

(٢) سقط من (د)

(٣) جالينوس : ( ١٣١ - ٢١٠ ق. م . ) طبيب اغريقي عظيم ، بقي اسمه علماً في عالم الطب الى هذا العصر . ظهر في حقبة كان الطب فيها في ايدي السفسطائيين الدجالين ، فاحيا طب ابيقراط ، فكانت له بذلك شهرة عظيمة في عصره ، وهو أكثر الاطباء الاقدمين مني بدراسة الفلسفة . فلما تعمق فيها ، بدا له ان يؤلف ، فشرح كل مؤلفات ارسطو ، ثم اكب على دراسة الطب .

كانت مؤلفاته شبيهة بموسوعات في الطب النظري والتشريع ، وقد سادت آراؤه في الطب حتى اوائل القرن السابع عشر .

كان كاتباً خصياً ، الف في غير الطب ١٢٥ مؤلفاً ، منها ١١٥ فلسفية ولكنها لم تصلنا اذ احترقت في أثناء حياته ، والباقي الى يومنا هذا من كل مؤلفاته الطبية والرياضية والفلسفية ٧ مؤلفاً .

اما فلسفته فمزيج مضطرب مليء بالتناقضات والغموض .

(٤) لم نثر في كتب الحديث الشهيرة على نص لهذا الحديث . ( من دائرة المعارف الفرنسية باختصار )

(٥) حديث ضعيف كما في الجامع الصغير ، رواه ابن مساكين مع ابن مسعود .

(٦) سقط من (د)

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب المصائب ثعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك اذا نظرت اليه وحده ، ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة (١) عن الحصر ، ربما ظننت انه سحر وتحييل ، وانه من الله تعالى إضلال فانه « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » . (٢)

وترد عليك اسئلة (٣) المعجزات ، فاذا كان مستند ايمانك الى كلام منظوم (٤) في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم ايمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التمييز ، كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه ان يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتمييز الأحاد . فهذا هو الايمان القوى العلمي .

وأما الذوق فهو كالشاهدة والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة ، كاف في الغرض الذي اقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة اليه (٥) .

- (١) في (ط.ع) : الخارجية .  
 (٢) قرآن كريم « سورة فاطر » الآية ٨ .  
 (٣) في (ع) : مسألة .  
 (٤) في (ط.ع) : فان كان مستندا ايمانك الى كلام منظوم .  
 (٥) في (د) : الى ذكره .

### سبب نشر العلم

### بعد الاعراض عنه

ثم إنني لما واطبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وإن لي في أثناء ذلك على الضرورة من اسباب لا احصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الايماني : أن الانسان خلق من بدن وقلب (١) ، واعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم (٢) ، وله مرض فيه هلاكه الأبدى الآخروي ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض (٣) » ، وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه الحيي ، وطاعته بخالفه الهوى ،

- (١) في (ط) : أن للانسان بدنا وقلبا .  
 (٢) قرآن كريم « سورة الشعراء » الآية ٨٩ .  
 (٣) « سورة البقرة » الآية ١٠ و « المائدة » الآية ٥٥ وفيهما .

دواؤه الشافي؛ وانه لا سبيل الى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته ،  
الا بأدوية ؛ كما لا سبيل الى معالجة البدن الا بذلك . وكما أن أدوية  
البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة  
العقل ، بل يجب فيها تقليد الاطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين  
اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء ، فكذلك بان لي ، على  
الضرورة بأن ادوية العبادات بمحدودها ومقاديرها المحدودة القدرة من  
جبة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء « بل يجب  
فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة  
العقل » . وكما ان الادوية تركب من ( اخلاط مختلفة ) النوع والمقدار  
وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها  
عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي ادوية داء  
القلوب ، مركبة من افعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى ان السجود  
ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ؛ ولا يخلو  
عن سر من الاسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها الا بنور  
النبوة . ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط ، بطريق  
العقل ، لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر  
إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية . وكما ان في الادوية أصولاً هي  
أركانها ، وزوائدها هي متماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في  
أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متمات لتكميل آثار أركان  
العبادات .

وعلى الجملة : فالانبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وانما  
فائدة العقل وتصرفه ، إن عرفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه

بالمعجز<sup>(١)</sup> عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا  
اليها<sup>(٢)</sup> تسليم العميان الى القاندين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى  
الاطباء المشفقين . قال هنا مجرى العقل وخطاه<sup>(٣)</sup> وهو معزول عما  
بعد ذلك ، الا عن تفهم ما يلقيه الطبيب اليه<sup>(٤)</sup> ..

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة  
والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم  
في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرت  
الى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

- ١ - سبب من الخائضين في علم الناسفة .
- ٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .
- ٣ - وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم .
- ٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

(١) في (ط.د) : المعنى

(٢) سقط من (د)

(٣) في (ط) ومطاؤه .

(٤) يريد الغزالي ان يقول ان نطاق العقل محدود . راجع جميل صليبا وكامل عياد :  
« ابن خلدون : منتخبات » ص ١٠ وما بعدها و ص ٤٧ وما بعدها . ( مكتب النشر العربي  
بدمشق ) .

فاني تتبعت مدة آحاد الخلق ، أسأل من أن يقصر منهم في متابعة الشرع ( وأسأله ) <sup>(١)</sup> عن شبهته والبحث عن عقيدته وسره وقلت له : « مالك تقصر فيها فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطنياً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وأن كنت لا تصرح به تجمل بالايان وتشرفاً بذكر الشراع ! »

**فقائل يقول :** « ان هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير <sup>(٢)</sup> بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الاوقاف واموال اليتامى . وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! » وهم جرا الى امثاله .

**وقائل ثان :** يدعي ( علم ) <sup>(٣)</sup> التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة الى العبادة !

**وقائل ثالث :** يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

**وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .**

(١) سقط من (د)  
(٢) في (د) : المشهورين  
(٣) سقط من (د)

**وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول :** « الحق مشكل ، والطريق اليه متعسر <sup>(١)</sup> ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ » .

**وقائل خامس يقول :** « لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجاهل حتى أدخل في حجر التكليف ، وانما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى ايمان من قرأ ( مذهب ) <sup>(٢)</sup> فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : « إن كانت النبوة غير صحيحة ، فلم تصلي ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والوالد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ،

(١) في (ع) : متعسر ، وفي (د) مسدود

(٢) سقط من (د) (علم) د

والنبوة حق ! ، فيقال : « فلم تشرب الخمر ؟ » فيقول : « إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محتز عن ذلك ، وإني أقصد به تشجيع خاطري . » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تليها بل تداوياً وتشافياً فكان منتهى حاله في صفاء الايمان ، والقيام بالعبادات ، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي (١) .

فهذا إيمان من يدعي الايمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم إخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعتراضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل (٢) .

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي ملبة (٣) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفصاح (٤) هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم [ وطرقهم ] ، أعني [ طرق ] الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء ، انقذ في نفسي ان ذلك متعين في هذا الوقت محتوم .

(١) في (ط) و (ع) و (د) : التشافي وهو خطأ

(٢) في (د.ع) : تبهنا عليه

(٣) الب على الامر : لزمه فلم يفارقه وفي طبعة احمد فريد رفاعي : مكبة

(٤) في (د) : افعام

فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الاطباء ، وأشراف الخلق على الهلاك ! ثم قلت في نفسي : ( متى تشتغل (١) أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ) (٢) ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم (٣) ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت ببني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تمللاً بالمعجز عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالتهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حداً كان ينتهي ، لو أصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة ، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك عُسر معاناة الخلق (٤) ، والله سبحانه وتعالى يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم (٥) : ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا

(١) في (ع) : تستقل

(٢) سقط من (د)

(٣) في (ط.د) : وكيف تقاسيهم .

(٤) في (د) : فلم ترخص نفسك بمسرة معاناة الخلق وفي (ط.ع) : ولم ترخص نفسك

لمسرة معاناة الخلق .

(٥) سقط من (د) .



يُفْتَنُونَ ؟ ولقد فتننا الذين من قبلهم <sup>(١)</sup> الآية . ويقول عز وجل لرسوله وهو أعر خلقه : « ولقد كَذَّبْتَ رُسُلًا من قبلك فصبروا على ما كَذَّبُوا وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ؛ ولا مبدّل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين <sup>(٢)</sup> » . ويقول عز وجل « بسم الله الرحمن الرحيم <sup>(٣)</sup> : يس . والقرآن الحكيم » إلى قوله : « إنما تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ <sup>(٤)</sup> » فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ؛ وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة <sup>(٥)</sup> فاستحكم الرجاء . وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مائة ، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة . وهذه حركة قدرها الله تعالى ، ( وهي ) من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقذاح في القلب في هذه العزلة <sup>(٦)</sup> ، كما لم يكن

(١) سور « المتكويث » : الآية ١  
(٢) سقط من (د) « سورة الانعام » : الآية ٢٤ .

(٣) سقط من (د)

(٤) سورة « يس » : الآية ١١

(٥) يشير الغزالي إلى الحديث الشريف : ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المروعة .  
(٦) في (د) . مدة المولة

لخروج من بغداد ، والتزوع عن تلك الاحوال مما خطر <sup>(١)</sup> امكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والاحوال و « قلب المؤمنين بين اصبعين من اصابع الرحمن <sup>(٢)</sup> وأنا أعلم أي » ، وان رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فان الرجوع عوئد إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيته ؛ يعلم الله ذلك مني وأنا ابغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأضل إلى مرادي أم أحترم دون غرضي ؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ( <sup>(٣)</sup> ) وأنا لم أتحرّك ، لكنه حركني ، وأنا لم أعمل ، لكنه استعملني ؛ فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ؛ ثم يهدي بي ؛ وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

\*\*\*

ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم واتقادهم من مهالكهم :

(١) في (د) : يخطر

(٢) جاء في ج ٢ ص ٣٠١ من « صحيح مسلم » : ان النبي عليه السلام قال : « ان قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من اصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف شاء . » من ابن عمرو .

(٣) سقط من (د)

أما الذين ادعوا الخيرة من أهل التعليم فعلاجهم <sup>(١)</sup> ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ، ولا نطول بذكره ( في ) <sup>(٢)</sup> هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود ( علم ) <sup>(٣)</sup> خواص الادوية والنجوم وغيرها . وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وأما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه ، برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكم <sup>(٤)</sup> له طالع مخصوص ، يقتضي طالعه ان يكون متبوعاً ؛ وليس هذا من النبوة في شيء ، بل الإيمان بالنبوة : أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن ادراك الألوان ؛ والبصر عن ادراك الاصوات ، وجميع

(١) في (ط.ع) : فعلاجهم .

(٢) سقط من (د) .

(٣) سقط من (د) .

(٤) في (د.ع) بحكيم

الحواس عن ادراك المعقولات ، فإن لم يجوز هذا ، فقد اقننا البرهان على امكانه ، بل على وجوده . وإن جوز هذا ، فقد أثبت ، ان هنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حوالها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فلأن وزن دانق <sup>(١)</sup> من الأفيون ، سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة ، يزعم أن <sup>(٢)</sup> ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصري <sup>(٣)</sup> الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن اربطالاً من الماء والتراب ، لا يبلغ تبريدها في الباطن الى هذا الحد . فلو اخبر طبيعي بهذا ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ؛ والدليل على استحالة ان فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ؛ فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد ، فإن انضم اليه حاران فبان لا يوجب ذلك أولى » ، ويقدر هذا برهاناً ! وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبني على هذا الجنس ! فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يالفوه قدروا استحالاته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، انه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لا نكره المتصفون <sup>(٤)</sup> بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ، فيأكل تلك البلدة يحملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى [ شيئاً ] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ » لقال : « هذا محال وهو من الخرافات ! » وهذه حالة النار ، ينكرها من لم يرَ النار اذا سمعها . وأكثر [ إنكار ] عجائب الآخرة هو من هذا

(١) الدانق : سدس الدرهم

(٢) في (ط) أنه

(٣) في (ط) : التي يقلب فيها منصر .

(٤) في (د.ع) المتصفون .

القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت الى ان تقول : في الافيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المقول بالطبيعة . فلم لا يجوز ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة ؟ » بل قد اعترفوا بخواص هي اعجب من هذا فيما اوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المحرّبة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق ، بهذا الشكل :

يكتب على خرتين لم يصبها ماء ، وتنتظر اليها الحامل بعينها . وتضعها تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال الى الخروج . وقد اقروا بإمكان ذلك واوردوه في « عجائب الخواص »<sup>(١)</sup> وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ؛ قرأته في طول الشكل او في عرضه او على

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	ا	ح

(١) لم نعث في نهارس الكتب المعروفة على ذكر لهذا الكتاب

التأريب<sup>(١)</sup> .

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركمتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الاوقات . وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والمعجب انا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الاوقات ، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، او في الطالع أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج »<sup>(٢)</sup> وتفاوت الاعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب ،<sup>(٣)</sup> الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال يعاد تصديقه ، حتى لو قال المنجم [ له ] : « اذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر اليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ؛ فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد عرف<sup>(٤)</sup> كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى

(١) لم نعث حتى في امهات معاجم اللغة على شرح لهذه اللفظة مناسب للسياق . والظاهر ان الغزالي يقصد بالتأريب قراءة ما في المربع من الزاوية اليمنى العليا الى الزاوية اليسرى السفلى ، او على العكس .  
(٢) في (د.ع) : الهيلاج  
(٣) في (ط.ع) : فهل لتصديقه سبيل  
(٤) في (د) : قد جرب

الاعتراف بأنها خواص - معرفتها معجزة لبعض الانبياء - فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ! ( ولم لا يتسع لأمكانه ) (١) .

فان أنكر فلسفي (٢) امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ، ورمي الجمار وعدد اركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقاً اصلاً . فإن قال : « قد جربت شيئاً من النجوم شيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فاندح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرتة ؛ وهذا لم أجربه به ، فم اعلم وجوده وتحقيقه ؟ » وان اقررت بإمكانه ، فأقول : « انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع اقوال الانبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك . »

على اني اقول : « وان لم تجرب به ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإننا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب ( المرض ) ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فمعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . » فإذا يقتضيه عقله ، وان كان الدواء مرأ كربه المذاق ؛ أن يتناول او يكذب ويقول : « أنا [ لا ] أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ! » فلا شك انك تستحقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحقك اهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فم اعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول : « وبم

(١) سقط من (ط.ع)

(٢) في (ع) : وإذا نظر في

عرفت [ شفقة ابيك ] وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن احواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتماهى فيه . »

ومن نظر في اقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الاخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر (١) الناس بأنواع الرفق واللفظ ، الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين ، وبالجملة الى ما يصلح به (٢) دينهم ودينام ، حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته اعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر الى عجائب (٣) ما ظهر عليه من الافعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الاخبار ، وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه الا الخواص ، والامور التي لا يدركها العقل . فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي (ص) . فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار ، تعرف ذلك بالميان . وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان .

واما السبب الرابع - وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء - فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

(١) في (ع) : في حق ، وفي (د) : سوق

(٢) في (ط.ع) : الى ما لا يصلح الا به

(٣) في (د) : العجائب

انحصاراً : أن تقول : « إن العالم الذي نؤمن أنه يأكل الحرام ومعرفة بتحریم ذلك الحرام كمعرفة كبحریم الحر [ ولحم الخنزير ] والربا ، بل بتحریم الغيبة والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتعلمه ، لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشوته كشهوتك » وقد غلبته كما غلبتك ، فقله بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المخطور المعين .

« وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محل هفوات العلماء . »

الثاني : أن يقال للعلمي : « ينبغي أن تمتد أن العالم اتخذ علمه فخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجي ، ويكون شفيماً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو « وإن ترك العمل ، بدلي بالعلم : وأما أنت أيها العلمي ! إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيح لك ! »

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى [ منه ] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيد ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى . وأما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ ورجاءاً ] ، وذلك يحول بينه

وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان . فالؤمن مفتح تواب ، وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

\*\*\*

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتها وآفات من أنكر عليها ، لا بطريقة .

\*\*\*

نسأل الله العظيم أن يجعلنا من آثره واجتباة ، وارشده إلى الحق وهداة ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

# فهرس

صفحة	صفحة
٦٤ اصناف الطالبين	المقدمة
٦٦ علم الكلام : مقصوده وحاصله	١ توطئة عامة
٦٩ الفلسفة	٤ حياة الغزالي
اصناف الفلاسفة وشمول وصية الكفر	٧ فلسفة الغزالي
٧١ كافتهم	١٨ تحليل المنقذ من الضلال
٧١ الدهريون	١٩ الشك
٧١ الطبيعيون	٢٣ انتقاد الفرق
٧١ الالهيون	٢٩ النبوة والاصلاح الديني
٧٤ اقسام علومهم	آثار الغزالي
٧٤ الرياضية	المطبوعة
٧٦ المنطقيات	٣٣ المخطوطة
٧٧ الطبيعيات	٣٧ المفقودة
٧٨ الالهيات	٣٨ المنحولة
٨٠ السياسيات	٤٤ ايم المصادر عن الغزالي
٨١ الخلقية	٤٦ طبقات المنقذ من الضلال وترجماته
٨٦ مذهب التعليم وغائلته	٥٠ ملاحظة
٩٥ طرق الصوفية	٥١ المنقذ من الضلال
حقيقة النبوة واضطرار كافة	توطئة
١٠٥٢ الخلق اليها	٥٥ مداخل السفسطة وجحد العلوم
١١ سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه	٦٠

## النصوص الفلسفية التي نشرها

الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد

١ - ابن خلدون ( منتخبات مع مقدمة عن حياة ابن خلدون وفلسفته )  
مطبعة ابن زيدون دمشق ١٩٣٤ .

٢ - المنقذ من الضلال للفرازي ، الطبعة الخامسة ، مطبعة الجامعة السورية ،  
دمشق ١٩٥٦ .

٣ - حي بن يقظان لابن طفيل ، من منشورات مكتب النشر العربي ،  
مطبعة ابن زيدون دمشق ، الطبعة الاولى ١٩٣٥ .

## النصوص الفلسفية التي نشرها

الدكتور جميل صليبا

١ - ابن سينا ( منتخبات مع مقدمة عن حياة ابن سينا وفلسفته ) من  
منشورات مكتب النشر العربي ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، الطبعة الاولى ١٩٣٧  
٢ - الرسالة الجامعة من مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، الجزء  
الثاني ١٩٥١ .

٣ - كتاب الحيدة ، لمبد للمزني الكنفاني ، من مطبوعات المجمع العلمي  
العربي ، دمشق ١٩٦٤ .